روايات عبير



فيوليت وينسبير

عروس إبليس

١٦٣

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 163

عروس إبليس

لم يكن الشك يوماً حديقة الحب بلا منازع، بل الشك جحيم الحب ومقصله القاطعة. وعلى أساس الشك لا يمكن بناء أي شيء جميل. الا ان الفي الممرضة البريطانية تزوجت روداري فورتوناتو الكاتب الشهير الذي ينتمي الى دم روماني عريق وعائلة وطيدة الثراء والمجد... وجدت نفسها اسيرة الشك الذي تغذيه صورة طفل يشبهه وشبح امرأة تركت توقيعها على ديوان شعر في غرفته.

ووسط عالم السينما والتقاليد الرومانية كادت هذه الممرضة ان تمرض لولا حبها الذي لم يفقد هيبه حتى النهاية!

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
BRIDE OF LUCIFER

المراسلات:
Harlequin (Cyprus) Ltd
29 Michalakopoulou St
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

١ - عليك أن تقرري

منذ اللحظة الأولى التي ألبسها الخاتم اهتزت طرباً ولكنها شعرت بشيء من التوجس. وحجر الخاتم هذا منحوت من الياقوت تحيط به ماسات صغيرة متناهية الكمال. وذكر عرضاً ان الخاتم جزء من الارث يتنقل من واحد الى آخر ضمن العائلة منذ اجيال. الذوق اللاتيني واضح في صنع الخاتم كما هو واضح في مظهر روداري.

هل حقاً يريدها ويحتاج اليها؟ ما الذي يمكنها أن تقدم لرجل يستطيع الحصول على عروس كلها جمال وثروة واتزان وذكاء؟

كانت السيارة القوية تسرع على الطريق ولا تكاد تمكنها من مشاهدة كروم العنب وسطيحات اللوبيا والفاصوليا والاخاديد التي حرثتها الثيران. السماء غائمة نوعاً ما والشمس تطل على الأرض من بين الغيوم. القت إلفي نظرة جانبية على الرجل الذي اتخذها زوجة له بالباسها خاتماً وباعطاء عهد امام الله والناس وأحست مرة اخرى بقشعريرة برد تسري في جسمها سببها الخوف لا الطقس. وداخلتها رغبة جامحة في أن تهرب منه قبل فوات الأوان. وحتى لو توقف وهي جالسة بقربه وفتح لها الباب لن تجسر على الفرار منه مع ما هي عليه من رعب.

هذا الرجل هو روداري فورتوناتو وهو يأخذها الآن معه الى الفيلا خاصته في جزيرة فورتوناتو ولكن دون أن يوجه اليها كلمة واحدة في يوم زفافها بالذات.

هل هو نادم على ما فعل؟ هل تدل ملامحه على هذا الندم؟ تلاحظ خط توتر في جانب وجهه وفكيه المطبقين. وقد تكون مخطئة في تمييز ما ينم عنه

هذا الوجه المسمر من جراء التزلج طيلة الشتاء في جبال الألب الايطالية ، حيث كان الناس في الفندق يتهامسون فيما بينهم انه في طور الخروج من محنة قاسية .

كانت إلفي قبل زواجها تعمل ممرضة محترفة في الفندق وتقوم على العناية بالمتزلجين الذين يصابون في حوادث الثلج . ومما زاد هذه الفتاة الانكليزية تعلقاً بعملها بيئة جبال الألب . قطعت إلفي الصمت بينهما بسؤالها :

- هل سنصل الجزيرة بعد الظلام ؟

كان يظن ان عروسه تفضل تمضية شهر العسل في بيت اجداده فاصطحبها الى الجزيرة بالرغم من انه يقضي معظم وقته في روما حيث يمتلك جناحاً في أحد الأبنية . ونم سؤالها البريء عن شعورها بالخوف منه وبحبها له في آن معاً . انها ترغب في أن تكون له بكليتها ولكن قصر المدة التي تم فيها التعارف بينهما وتلاحق الأحداث جعلاها تشعر كأنها فريسة مطاردة تريد أن تلتقط انفاسها خلالها .

كان منظر الطريق امامهما خليطاً من الشمس والظل وخالياً من حركة المرور ما عدا بعض عربات المزارعين أو شاحنة أو شاحنتين من الطراز العتيق . التفت روداري اليها وقال مازحاً :

- نعم ، بعد الظلام ، غير أن الزورق الذي سينقلنا الى الفيلا سيكون مضاء . ولأني لا آتي الى هنا الا نادراً تقوم على عناية البيت مديرة بمساعدة زوجها . وكما اخبرتك فان والدي متوفيان وفي روما كثيراً ما اتردد على اختي التي تعيش مع جدتي في ضواحي العاصمة . هل انت مطمئنة البال الآن ؟ في الفيلا ينتظرنا دفء ونظافة ووجبة طعام لذيذة وغرف نقية الهواء .

وضحك ساخراً ثم قال :

- انتم معشر الانكليز تقلقكم التوافه ولكنكم تحتفظون بهدوئكم في الأزمات .

- يختلف مزاجنا عن مزاج الشعوب اللاتينية ، ولا تهمني الترتيبات المنزلية في الفيلا حتى درجة القلق ، حيث اني اكيدة من سير الأمور على ما يرام . . اذ لا اتصور ان شخصاً مثلك يقبل بأقل من الأفضل .

لم يعلق على قولها بشيء ، وعضت على شفتها ندماً . هل لا يعتبرها فاتنة أو رصينة كما يريد أن تكون فتاة احلامه ؟ انها ما تزال تتذكر ما كان يقوله نزلاء الفندق عن حزن ألمّ به من جراء حب ضائع .

مرّا الآن بوادٍ تكسوه اشجار اللوز المزهرة بينما تلمست باصبعها حجر الياقوت الذي تراه غريباً على يدها أو كأنه ليس في محله . ذكرتها أزهار اللوز باللونين الأبيض والزهري رمزي يوم الزفاف والملمس الذي تشتهيه كل عروس . . . وفجأة طفرت دمعة من عينها . هل قادها روداري الى الهيكل المزدان بالسوسن والشموع ليعقد قرانه عليها بدلاً من اخرى فقدها ؟

- أراكِ التزمت الصمت فجأة .

اجابته باقتضاب :

- وأنت أيضاً .

- هل هذه أول مشاحنة بيننا ؟

- مشاحنة ؟ كلا . كنت فقط أمتع النظر بزهر اشجار اللوز .

رفعت خصلة عن عينها كانت قد افلتت من شعرها الملفوف بشكل كعكة وراء رأسها . والملفت للنظر التغاير بين لون شعرها الكستنائي الذهبي وعينيها الرماديتين الصافيتين ، والظل الموجود تحت عظمة الوجنتين والخنو الظاهر في فمها . قال روداري :

- انت بحاجة الى الأكل . يقولون ان الفتيات لا يأكلن كثيراً يوم زفافهن .

توقفا بعد برهة وجيزة عند مزرعة حيث تناولا غداء خفيفاً تبعه قليل من التين التوسكاني وفنجان قهوة ، وأخذا معهما بطيخة أكلاها فيما بعد على جانب الطريق وتلذذا بطعمها الحلو .

كان الوقت غسقاً وأضفى لونه الارجواني جمالاً سحرياً على الطبيعة وكانت تصل اليهما رائحة محاصيل الأرض من حولهما . هنا منيت روداري . . . ووجود إلفي في ايطاليا هو نتيجة اندفاع من قبلها لم ترج غاية من ورائه سوى ارضاء نفسها .

- هل تذوقت فاكهة بهذه اللذة من قبل ؟

انفرج وجهه الأسمر عن ابتسامة وقال لها وهو يضع يده على وجنتها :

- ما تزال امامنا بضعة اميال قبل أن نصل . فلم لا تغفين وانا أسوق ؟

- حسناً .

أحست بيده الحارة تلمس وجنتها . انزلقت قليلاً في مقعدها وغطت وجهها بفرو المعطف . . . هي التي لم تحلم بامتلاك معطف من الفرو .

وقدرت معطفها الناعم واللامع بثمن باهظ ، وعندما قدمه لها وضعه على كتفيها بصورة عرضية تماماً مثلما ألبسها الخاتم الياقوتي . جميل منه أن يقدم لها الملبس ووسائل الجمال . ولكن هل يحبها ؟ وهنا عادت بها الذكرى الى اول يوم تعرّفها به .

هذا هو روداري فورتوناتو الذي تحوّلت رواياته عن روما في السنوات الأخيرة الى سلسلة من الأفلام السينمائية الجميلة هلل لها الجمهور والنقاد بأنها ذات عمق وواقعية ، وحركت قصصه مشاعر القراء وضمائرهم .

كانت شهرته وجاذبيته تملآن الآفاق ومع ذلك ارتمى في احضان جبال الألب بحثاً عن السلوى والنسيان . وهناك التقى بإلفي وصادقها وكثيراً ما كان يصطحبها الى هنا وهناك ويعلمها التزلج . وهناك وفي ضوء القمر المشع فوق قمم الجبال نسج العنكبوت خيطه حولها وطلب روداري من إلفي أن تصبح زوجته . اعتبرت إلفي ذلك ضرباً من الجنون فضحكت وقالت وهي تنظر الى الجبال :

- لا يجب أن تتفوه بعبارات كهذه بهذه السهولة يا سنيور . فقد تقع على فتاة مستوحشة وتأخذ عرضك هذا بجدية وتتوقع منك أن تتزوجها .

- هل انت فتاة مستوحشة يا إلفي ؟ لكم تساءلت عما اذا كنت تشعرين بالوحشة كونك غريبة بين جماعة السياح الأثرياء تقومين بواجبك بكل اخلاص وجدية . واني لعلى يقين من أن بعض هؤلاء السياح يرهقونك وأنت تعالجينهم .

- اني اجد لذة في مهنتي يا سنيور واثارة في العمل خارج بلادي .

ضغط بيده على كتفها وأدار وجهها نحوه وقال :

- هل تحبين العيش في ايطاليا ؟ . . . معي ؟

- ارجوك . . . لا تتكلم عن الزواج .

خشيت أن تخضع لالحاحه تجاوباً مع لمساته التي من السهل الانجذاب اليها في ضوء القمر وتصديق ما يقول ، وستجد نفسها أمام الحقيقة الواقعة عندما تستيقظ صباح اليوم التالي وكأنها أفاقت من حلم . ليست الا مجرد ممرضة ذات وجه يغلب فيه مظهر الاطمئنان على مظهر الجمال . ولذا عزمت على التغلب على ضعفها أمامه وتلهفها لقربه . قالت وهي تلهث :

- لن تمضي بضعة ايام الا وتضجر مني . ان اندفاعك بعاطفتك الجياشة

وقت الغداء تغلب على عقلك كما انه جرفني معك ، ولكني لن اتركك تسخر مني . . . أو تغريني !

- أغريك ؟ انا اطلب منك أن تتزوجيني ! انا لا اطلب منك أن تمضي ليلتك معي في كوخ في الجبل .

- لا يبدو عليك انك رجل زواج .

احتدّ خوفها ويأسها من الحب لدرجة انها اخذت تتجنب لمسات يده ، ولكن كان ذلك كمن يهرب من المد وهو يجري فيه ، أو كفراشة تضرب شجرة بجناحيها الرقيقين . وروداري أطول من إلفي بكثير وصاحب غطرسة جذابة ولكن مدمرة كما هي مدمرة قوة عزمه في الحصول على ما يريد .

وقالت بدون تروٍ :

- لم تذكر الحب في حديثك ! من المفروض أن يكون الحب والزواج صنوين متلازمين .

علق على كلامها ساخراً :

- كالشاي والخبز المحمص ؟

- ها انك تهزأ من ذلك . . . وتتوقع مني أن آخذ عرضك بعين الاعتبار

- لا يجب أن تكوني بهذه الجدية يا ابنة الغابات الانكليزية .

دس يده في شعرها المتطاير وأمسك بخصلة منه وشدها . . . ربما ذكّره شعرها بشعر أكثر سواداً أو بفتاة أقل تحفظاً وأكثر تجاوباً مع تهوّر الطبع اللاتيني .

- الحب يا إلفي ؟ هل تأملت ما هو الحب ؟ انه حالة عاطفية تجعل النبض يتسارع والعقل يضطرب . انه كالحمى وعلاجه يد باردة على الجبين وعناية حنونة .

- كلامك يعني ان الحب يحتاج الى ممرضة بدلاً من زوجة يا روداري .

وأخذ نبضها وهي تتكلم بتسارع واضطرب عقلها . ارادت أن تستسلم لعرضه لتجعله يشعر بحاجته اليها . . . ولكن أين سيؤدي بها الأمر في نهاية المطاف ؟ الزواج القائم على حاجة الرجل الى السلام والهدوء بديل هزيل عن الزواج القائم على الحب . كانت قد تعرفت عليه منذ اسبوعين فقط وعرفت انه وجدها خلالهما رفيقة دمثة وانه شعر بحنان نحوها

وتعلق بها . ولكن ماذا سيجري لها اذا مل من عروسه الهادئة التي سيجد انها لا تلائم رجل مجتمع عالمي مثله ؟

ـ لنعد الى الفندق . ارجوك . ولتنسَ انك رغبت في لحظة جنون الزواج مني .

ـ هل تحاولين أن تجعليني اصدق بانك لا تهتمين بي ؟

كان وهو يوجه اليها كلامه هذا ينظر اليها ويبتسم ابتسامة قاسية .

وخشيت أن يسبب لها ألماً وهو يمسك بها بشدة خوفاً من أن تهرب منه . كانا وهما واقفان فوق مرتفع من الثلج كأنهما صورة مرسومة في ضوء القمر أو طيفان في حلم يتوسطان سجادة عليها رسوم قمم مغطاة بالثلوج ، ورسوم أشجار الصنوبر وسقف كوخ سويسري مختبئ بين الأشجار .

اغتاظت من الحاحه فقالت :

ـ لي مهنتي يا سنيور ، ولن اتخلى عنها مقابل الزواج من رجل يريدني من اجل لمسة باردة مني ويراعي في الانسحاب عندما يصبح وجودي غير ضروري .

ـ لا تنسي تقلبات المزاج وان اي ايطالي لا يقبل بامرأة تنقصها الحيوية . لا تخافي . ستكون لك مهنة مكتملة النواحي . وانا اعرض عليك الزواج هذا المساء لأني سأكون غداً في روما . وعليك أن تقرري الآن . اما أن تقبلي بالزواج مني أو أن تودعيني في الصباح .

أحست كأن قلبها هبط الى معدتها وبقشعريرة برد تسري في جسمها . لا تريد أن تفترق عنه ولكنها لا تريد أن تجازف باتخاذ الخيار الآخر أي الزواج من شخص لا يبادلها الحب ، وهذا معناه فتح الباب على مصراعيه لمستقبل بلا سعادة .

أخذ رأسها بين يديه واستولت على جسمها موجة من القشعريرة والارتجاف وهي تنظر اليه وتقول :

ـ لن انساك يا روداري .

ـ لن انساك انا الآخر . فقد جلبت الى حياتي معنى الرحمة وهي في مهنتك اسمى شيء للانسان . كنت آمل أن احتفظ بك . ولكن اذا اصررت على أن ادعك تذهبين . . . هل انت مصرة يا إلفي ؟ هل انت خائفة مني أو من اصدقائي أو شركائي الذين يعتقدون بأن على الرجل أن يتخذ له زوجة تناسب حياته العامة لا حياته الخاصة ؟

ـ انت رجل لك اهميتك . . . عضو في المجتمع الروماني وتتجول في

جميع أنحاء العالم . يلزمك زوجة على مستوى متطلبات نوع حياتك . واذا اصبحت زوجتك سيصيبني اخفاق تام كزوجة لكاتب أشهر من نار على علم تحوّل كتبه الى افلام . قلت لي انك تكتب للأفلام وتختلط بالممثلين . ويخيفني مجرد التفكير في هذا .

ـ اري انك ترتعشين . يا طفلتي اللطيفة ، ما الذي يخيفك في مشاركتك حياتي وأصدقائي ؟ لن تكوني وحدك كما انت الآن لتردي عن نفسك الحاحات الغرباء . اريدك أن تشاركيني حياتي .

ـ الأني لن الح عليك في طلباتي ؟

ـ لأنك نزيهة وصادقة يا إلفي . لست مدعية ولك قلب مكشوف . انت حقيقية ، لا تمثلين دوراً .

خفق قلبها وسألته :

ـ لا بد انك عرفت الكثيرات

ـ طبعاً .

ـ هل تركز اهتمامك على واحدة منهن ؟

ـ لي من العمر اربع وثلاثون سنة ولست مترهباً . هل تأملين في اتخاذ زوج لك لم يمس امرأة في حياته ؟ لست ساذجة بهذا القدر أو فتية حتى تعتقدي بأن رجلاً كهذا يكون زوجاً صالحاً . قد اخيب ظنك ان كذبت عليك .

ـ انت تتكلم عن المغازلة وأنا اتكلم عن الحب .

ـ هل تحبيني يا طفلة ؟

ربت على شعرها ولكن بلطف هذه المرة وقال :

ـ هل تخشين من اني لن اجلب السعادة لك ؟ اقر بأني ذو سطوة ورفعة . . . ولكن في مقدوري أن اكون لطيفاً .

ـ لا ، لا تعاملني باللطف !

وفيما هي تحاول الابتعاد سمعا هديراً فوق رأسيهما ورأيا كتلة صغيرة من الثلج تنفصل عن الجبل وتتدحرج . ازاحها بسرعة عن مكان وقفتها وارتمت بين ذراعيه وسقط كلاهما وكاد الثلج يغطيهما . وأحست بعناقه الدافىء في الوقت الذي كان الثلج ينجرف بالقرب منهما ، والقمر يضيء هذا المشهد بنوره الممتزج بظلال النجوم .

ـ لا . . . ارجوك !

ولكن مناشدتها له ذهبت سدى وذابت كما تذوب رقائق الثلج .

- روداري . . . لماذا انا بالذات ؟

- لانه ليس لك أحد غيري .

كلمات فيها سطوة خفية جعلتها تهدأ بين ذراعيه كطائر وديع ولم يرفع وجهه عن وجهها . كان حليق الذقن والشارب ، ناعم التقاطيع ، اسمر الوجه . بدت لها عيناه قاتمتي اللون الآن على نقيض لون العقيق الأحمر الذي يبدو فيهما جلياً كلما حركهما بسرعة في وضح النهار . وتميزت نقاطاً فضية في شعر صدغيه الأملس . وفي أول لقاء بينهما ارهبها ما رأت فيه من مزايا . وكانت دائماً تتساءل هل يعرف هذا الرجل الابتسامة ما دامت شفتاه تنمان عن تحكم ؟ وفقط عندما بدأ يظهر اهتماماً بها في لباسها الأبيض اخذت عيناه تدلان على ما يشبه الابتسامة كما لو انه وجد فيها شيئاً مسلياً . واعترض سبيلها ذات يوم في الردهة وهي في طريقها لتخرج الى نزهة . رفعت نظرها ورأت صفين من الأسنان البيضاء بينهما سيكار فانقبض قلبها ، ورأت في هيئته انه قد يكون رجلاً بلا ضمير أو رادع . ومع ذلك وافقت عندما استأذن منها أن يرافقها لأنها لم تفكر مطلقاً أن مسيرة قصيرة في الحقل ستؤدي الى طلب يدها للزواج بصورة ملحة وجدية . قال روداري هامساً في اذنها :

- قولي نعم . قوليها الآن دون أن تفكري فيما تتلفظين .

كان الثلج يتساقط ويزين سواد شعره بنقاط بيضاء ويزيد من رونق بعض الخطوط الفضية عند صدغيه . نوت أن ترفض طلبه الا ان الثلج أفقدها حس شفتيها . وكانت تعلم بشحوب وجهها . وفسرت التجويفتين تحت عظمتي وجنتيه تعطشاً الى حب فقده وبحثاً عن السلوى في احضان فتاة وديعة لا تؤذيه كما آذته فتاة اخرى من قبل ، حسب اعتقاد إلفي .

- هل صحيح ان لبيتك برجاً ؟

- هل تحبين الأبراج ؟

- اراها رومانطيقية .

- وأنت تعرفين ما هو رومانطيقي ؟

- اخشى الاجابة على هذا السؤال . . . فقد تعتبرني ساذجة .

- ربما ناشئة ، ولكن كيف تجهل ممرضة اموراً كهذه عن الحياة ؟ يخيل الي

وانا انظر اليك يا إلفي انك لم تري طفلاً يولد أو شخصاً يموت ، وما يحيرني هو أن ارى زوجتي بسيماء العفة . . . التي ليست موجودة الا في الأزهار ، هذا اذا استثنيتك طبعاً بعد أن عرفتك .

- انت تقدم اطراء غير عادي يا روداري .

احست بلمسات ريح المساء تداعب خديها الدافئين . . . انه يعرف طهرها وجهلها التام بمتطلبات الرجل . وسيصلان بعد قليل الى بيته حيث يمضيان ليلة زفافهما الأولى .

- انك نوع نادر من الفتيات واذا تملقتك كباقي الناس فلن يكون هذا اصولياً . الا تحبين مديحي ؟

- لم اعتد سماعه من فم كاتب مميز مثلك .

- انا زوجك الآن .

نمّ صوته العميق بلكنته اللاتينية عن انصهار كلماته بمعنى خاص . . . زوجها ، ومع ذلك فهذا الزوج غريب عنها في اكثر من ناحية .

ترى في مخيلتها بيته في الجزيرة تحيط به اشجار الزيتون والسرو . له سقوف مرتفعة ومصابيح من الحديد تنير السطيحة المعرشة بالكرمة حيث سيتناولان طعام العشاء ويطلان الى البحيرة وتلوح لهما الجبال عن بعد .

وبينما كانت تتلهف لرؤية المكان وتخاف في نفس الوقت ان تصل الى هناك ، نظرت إلفي الى زوجها ولاحظت جعدة سطحية في خده ، وكأنه شعر بتخوفها وهو يسرع نحو جزيرته . ابتسم لأنه وجد ذلك مسلياً ، كما وجدها تختلف عن باقي النساء اللواتي عرفهن واللواتي لا يرهبنه كما ترهبه هي بالرغم من انها تحمل خاتم الزواج في اصبعها .

ودت ان تطلب منه ان يتريث قليلاً ريثما تعتاد عليه ولكنها تعرف سلفاً ما سيقوله لها . . . سيقول بأنه توجد وسيلة واحدة فقط لتتعرف العروس على عريسها .

بدأ قلبها ينبض بسرعة اكبر عندما اخذت السيارة تنحدر من التل مقتربة من مرفأ بدت أنواره جلية وهي تضيء أشرعة وصواري الزوارق الايطالية . ورأت امام عينيها مجموعة بيوت وسقائف وأرصفة الميناء الحجرية . ساق روداري سيارته بمحاذاته وأخيراً توقف ، والتفت اليها وبقي مدة وهو ينظر اليها دون ان يتكلم الى أن قال أخيراً :

- وأخيراً وصلنا . اظن انك متلهفة لتشاهدي الجزيرة والبيت ، ولكن كلما لمست يدك أحس بانك ترتجفين وتصيبك العصبية كلما كلمتك . هل ابدو على كأني سابتلعك ، كما تبتلع العصافير الصغيرة التي يبيعها الطباخون التوسكانيون جاهزة للأكل ومناقيرها مفتوحة كأنها تتوسل ؟ تماماً كما تبدو شفتاك عندما انظر اليك ؟

احست بأصابعه ترفع يدها ونبضات قلبها تحت ضغط ابهامه على معصمها . لا يجب أن تسلك هذا المسلك اذا ارادت أن تكون رزينة ومطمئنة وأكيدة من عنايته الفائقة بها .

- يجب أن تتذكر يا روداري انني بعيدة عن الأشياء المألوفة .

- من هذه الأشياء المألوفة مثلاً بيت للممرضات في كنستون ؟ هل نسيت يا عزيزتي بأن لك امرأة اب بعد وفاة والدتك كما قلت لي ، وانك لا تستمتعين بحياة بيت عائلي كما تشتهين ؟ البيت العائلي شيء ثمين جداً للمرأة . سأقدم لك بيتاً على هذه الجزيرة وآخر في روما . وأنت ماذا ستقدمين لي ؟

شعرت بأن قلبها كالعصفور الذي يخاف أن يكسر جناحيه ، وذلك من وجلها . ولكنها وضعت ذراعها حول عنقه وتحرك في قلبها حب لهذا الغريب لم تشعر به من قبل . قد يتعلم كيف يحبها كما احب الفتاة الأخرى ... الجميلة الصعبة المراس التي لا تجرؤ إلفي على مجاراتها وصورتها بعد حية في قلبه الآن .

ابتسم لها وهو يحدق فيها . امتلأ انفها برائحة جميلة انبعثت من سترته عندما وضعت رأسها على كتفه . قال روداري بصوت خافت :

- انك لغريبة حقاً . اني اتساءل هل كنت محقاً في ملاحقتك ام لا ؟ فاذا كانت لديك اية رغبة يا مولودتي الجديدة ، ما هي ؟ هل تتمنين لو انك لم تتعرفي علي ؟

وبينما هي مترددة في التعبير عن رأيها من شدة وجلها لوّح شخص ما بمصباح الى جانب السيارة وكلم روداري بالايطالية . قال روداري :

- آه ، هذا مراكبي البيت مانفريدو والذي سينقلنا الى الجزيرة . تعالي . انا في عجلة لأريك البيت حيث ولدت .

رأت إلفي وهم في طريقهم الى المركب حدائق على الشاطىء . كلها جنة

صغيرة . انزل المراكبي حقائبها وبينما كان شعرها يتطاير احست بقبضة قوية تمسك بها لتساعدها وهي تنزل الى المركب . كان هذا المراكبي . جلست إلفي وأخذ روداري مكانه بجانبها وابتعد الزورق .

برز القمر من وراء الجبال وسطع بنوره الفضي على الماء وكانت حركات الزورق تكسّر شعاعه في البحيرة وتحركه يعكر صفو الليل . لم يتكلم احد وبدا روداري كأنه يتلذذ بهذا الصمت ، وبعودته الى بيته الذي يعج بذكريات لا تستطيع عروسه مشاركته فيها . وفي وسط هذا الصمت كان المراكبي منهمكاً بقيادة المركب ولاحظت إلفي نظراته الخاطفة نحوها بين الحين والآخر . هل يعتبرها غير جديرة بسيده ؟ هل ميّز فيها وجهاً سموحاً أكثر منه جميلاً وعينين وقورتين لا تليقان بعروس ؟

لاحت الجزيرة تحيط بها البحيرة التي تعلوها جدران الفيلا بشجر السرو ونبات الدفلى العطرة . وذكرتها ابراج الفيلا ونوافذها شبه المخفية بمشاهد البيوت التي تسكنها الأرواح .

شدت إلفي باصابعها على جزدانها وفكرت بأيام آل مديشي وأيام المبارزات والأخذ بالثأر وبحب دانتي الأبدي لبياتريس . وشبهت الواح النوافذ الزجاجية الصغيرة التي تعكس نور القمر بسطوح من الماس . احست بجمال وغموض يكتنفان المكان . كيف ستقوم بأعباء سيدة القصر ومتطلبات حياة روداري في روما ؟

اغمضت عينيها لتتلو صلاة صامتة وعندما فتحتها كان المركب قد وصل الى الرصيف وأخذ روداري والمراكبي يتكلمان بالايطالية بطريقتهما السريعة . وفي لحظة رأت الفي نفسها واقفة على الرصيف تنظر الى الفيلا حيث ستمضي شهر العسل .

قادها روداري من يدها وأسرع بها صاعداً السلالم ومراً في نفق من نبات الآس العاطر والكاميليا واستقبلتها ضفادع الأشجار بنقيقها المرتجف . لهثت عندما لاح لها شبح شاحب اللون وسمعت تساقط قطرات الماء . انه تمثال لحورية ذات جسم وثياب رشيقة ، وكان الماء يتساقط من فوق التمثال ويغسله قبل أن يصل الحوض .

- الحدائق الايطالية غنية بالتماثيل التي تبدو كأنها تستعيد الحياة من جديد في ضوء القمر .

وأزاح روداري غصن دالية عن طريقهما وقال :

- سأريك غداً بيت نبات السحلبية او الأوركيد وأشجار السرو الكشميري التي يتحول لونها ذهباً في ضوء الشمس . وفي القصر كنيسة صغيرة . هناك زفت والدتي على والدي . انحدرت والدتي من عائلة تزرع الدراق وبسببها دبت الخلافات بين والدي وأهله الذين كانوا يرفضونها ولم يتمكن من الزواج بها الا بعد معارك كلامية ومشاحنات . اسمها سابتينا وكل واحد في الجزيرة سيؤكد لك انها كانت تفوق زهر الدراق جمالاً . ماتت وأنا ما زلت طفلاً ابن بضعة ايام . وأكثر ما كان يزعج جدتي في روما ان ترى زوجة ابنها تمشي حافية القدمين دون أي مراعاة لنظم المجتمع الروماني الصارمة في تلك الأيام .

- اني لأتساءل ما عسى تقول جدتك عندما تراني .

التفتت إلفي بعنف الى روداري عندما آلمتها قبضة يده وهي تضغط على الخاتم الذي حز في جلدة اصبعها ، وعضت على شفتها من الألم .

- هل تسيرين حافية ؟

- كلا . ولكنني لست من المميزات والكونتيسة تأمل بلا شك أن تراك متزوجاً بفتاة من طبقتك .

- على الكونتيسة أن تقبلك أنت وبرغم كونها مستبدة برأيها ، وهذا تنبيه لك ، ستجدين شقيقتي هلين رقيقة ولطيفة . انها ارملة . ومات زوجها فلافيو الذي كان يعشق السيارات في سباق كان مشتركاً فيه . اتمنى لو تتزوج ثانية ولكنها متعلقة بذكرى زوجها المجنون الذي لم تعش معه الا فترة قصيرة . الحب شيء غريب يا إلفي . الحب احساس غريب ومؤلم يجب تجنبه بأي ثمن .

تقبلت إلفي هذه الصدمة التي سببتها كلماته بصمت ، ولكنها ثارت في داخلها وتألمت . انتزعت يدها من يده ورفضت أن تدخل الفيلا معه .

- ماذا تفعلين ؟

لم تكد تسحب يدها حتى أمسكها من كتفيها وألصقها بشجرة وراءها تفوح منها روائح أزهارها المتدلية من الأغصان ، واختلطت بالصراع القائم بين إلفي وروداري .

قالت بصوت مخنوق :

- في امكانك تجنبي ايضاً . في امكانك ان تدعني وشأني فأبتعد غداً . وهكذا تنسى انك تورطت مع زوجة صدف انك لا تحبها . . .

- انا تزوجتك لأني بحاجة اليك .

هزها بعنف وهز الشجرة معها فتساقطت بعض الأوراق من ازهارها الناعمة كما خرجت كلماته ناعمة من فمه :

- لم أدّعِ ابداً اني شاب رومانطيقي ولم اطلب منك أن تتصرفي معي كما لو كنت عاشقاً في احلامك . نحن فردان مستوحدان . . . وهذا وضع مشترك بين كلينا . كوني اكيدة يا إلفي من أن الوعد الذي اعطيناه اليوم ليس وعداً يمكننا التراجع عنه ببضع كلمات أو بنزوة غضب أو بقول الحقيقة . لك عينان نقيتان تفضلان الحقيقة على التظاهر . انت حقيقية كما اني حقيقي . وهذا المكان وجد ليكون مكان شهر عسلنا . وشهر العسل واقع لا محالة . انك تزوجتني ولا يوجد شخص على هذه الجزيرة يستطيع نقلك بالزورق بغير أمر مني .

- هل تنفذ تهديدك ؟

- لم لا ؟ سأنفذه . انا لاتيني بين افراد شعبي ومفهومنا عن المرأة هو انه يجب اخضاعها .

- تتكلم كأنك تنوي تحويلي الى سجينة هنا !

- لا تبالغي .

ضحك ساخراً وانحنى ليعانقها ولكنها ادارت وجهها احتجاجاً على صراحته القاسية . الا انه امسك بها بقوة . كان كل جسمها يصرخ استنكاراً وتعمد ان يلمس عنقها من فتحة المعطف ومن ثم طوقه بيده كمن يحمل عنقود عنب . قال موبخاً ومتهكماً :

- يبدو كأنك تقدمين نفسك ضحية .

وأخذ يمسد فروها كمن يلاطف شيئاً يملكه فيما كانت عيناه الواسعتان تهيمنان على باقي ملامحها . أمسكت عيناها الرماديتان عن البكاء ولكن قلبها كان يصرخ عاصفاً ، وقد اعتقدت بانها ستقتنع بحب شخص لا يحبها ، غير انها عرفت مدى الإهانة في اعتبار نفسها شيئاً يملكه .

وأضاف قائلاً بكلمات موزونة كأنه يحذرها من معاكسة مزاجه اللاتيني :

ـ عناقي لك هو ترحيب بك الى فيلا فورتوناتو . طبعاً انت مسرورة بأن تكوني هنا بعد رحلة طويلة بالسيارة .

كانت تنظر حولها وهما يصعدان الدرج الى السطيحة ، وبعد صف من النوافذ رأت غرفة فيها مدفأة نارها مشتعلة . اعطاها هذا الهدوء طابع غرفة ناعسة في ضوء القمر ورائحة دخان الحطب المحترق . وأخذت عيناها تعتادان على جو هذه الغرفة التي وجدت فيها شيئاً من السحر الممزوج بالنذير تترقب كشف الغطاء عنه .

وجفلت عندما اطبق بيديه على كتفيها وتسارعت دقات قلبها وخشيت من توقعه اذ توقعت أن يحملها بين ذراعيه ويتخطى بها عتبة الغرفة تبعاً للتقاليد . توترت اعصابها وهي تنتظر حدوث ذلك ، ولكنها سمعته يتنهد ويقول لها :

ـ لندخل . رأيتك ترتجفين عندما لمستك . . . اقتربي من النار لتدفأي .

ترددت ولكنه دفعها نحو المدفأة وبدا كأنه فقد صبره معها كمن ندم على تسرعه بالزواج منها . نظرت اليه مكرهة لتستكشف علائم الندم في عينيه واذا صح انه ندم كما ظنت فكيف تمضي معه الساعات المقبلة خالية من كل فرح ؟

وفيما هي في هذا الوضع تذكرت الحديث الذي جرى بينها وبين امرأة بدينة ثرثارة كانت تعالجها في الفندق بعد أن كسر كاحلها في التزلج :

ـ ان هذا الشاب المدعو فورتوناتو اكثر جاذبية من اي شخص آخر ولكنه غامض . لاحظي عينيه السمراوين والمفكرتين . . . يقولون انه كان مولعاً حتى الجنون باحدى جميلات المجتمع في روما . . . أو البندقية ؟ آه ، البندقية ، هل تعرفين هذه المدينة ؟ يا له من مكان رومانطيقي . . . ولكنكن معشر الممرضات ليست لكنّ حياة رومانطيقية ، اليس كذلك ؟

اجابت إلفي باقتضاب وهي تعالج الكاحل :

ـ ليس تماماً .

هل زواج روداري منها رد فعل ام بديل عن فقدانه ذلك الحب ؟

ـ تعالي ، لا تتواني . ام انك خائفة من وجودك وحدك معي ؟

ـ كلا .

لكنها خائفة فعلاً .

٢ ـ طيف يبحث عن طفلة

دخلا غرفة جميلة معتمة قليلاً وضغط روداري على زر الكهرباء فتوهجت مصابيح بلورية في زوايا الغرفة وتسلط نورها على الأثاث الايطالي الفاخر . ومن يشاهد الغرفة لا يفكر مطلقاً ان صاحبها تغيّب عدة اسابيع ، فقد كانت أنيقة ونظيفة كأن روداري يستعملها كل يوم من حياته . ولما التفتت إلفي لتقول انها اعجبت بالغرفة رأت امامها وجهاً عبوساً . تناول سيكارة من علبة فضية فيها نقوش وأغلقها بقوة . كانت العلبة محشوة بالسكائر وبجانبها ولاعة . قالت إلفي التي تعرف في قرارة نفسها انه يريدها ان تحب هذا البيت :

ـ غرفة ساحرة .

قال وهو ينفث الدخان :

ـ الصالون الكبير . غرفة التجمعات الكبرى بعد حفلات العشاء . لكننا لن نحتاج اليها ، اذ لا اريد استقبال أي احد . . . غير زوجتي . . .

صعد دخان السيكارة في دوائر فوق رأسه وبدت عيناه كأنهما تحترقان بهذا الدخان وهما تنظران اليها نظرة خاصة لم تعهدها من قبل ، حتى انها حوّلت نظرها عنه ووقعت عيناها على لوحة يظهر فيها مبارز في لباس اسود واقفاً بعنفوان وتحدّ . وبانت عيناه في ضوء المصباح متقدتين كعيني روداري . أثناء ذلك كانت رائحة الدخان تختلط بأريج الأزهار الموجودة في اناء خزف صيني .

ـ يخيّم على البيت هدوء كبير .

بالفعل لم تكن تسمع غير طقطقة احتراق الحطب في المدفأة وتكتكة

الساعة عندما يصمتان . وبالرغم من انها كانت تتوقع ان يطرق احدهم الباب في اية لحظة ، خاصة المرأة التي تهيء كل شيء لسيدها ، لم يحدث شيء من هذا . فنظرت اليه وسألته لماذا لم يظهر احد من خدم البيت حتى ولا المراكبي الذي رحل بعد أن نقل حقائبهما . اجاب روداري بلا مبالاة :

- كان من المفروض أن اخبرك .

تكلم وهو واقف تحت لوحة المبارز . وبدا روداري والمبارز كأنهما شخص واحد كله تيقظ .

أخذ قلب إللي ينبض بقوة وهي تنتظر منه أن يوضح لها سبب هذه السكينة بدل أصوات الترحاب وجلبته ، ثم أضاف موضحاً :

- لا يبقى داريو وزوجته دلفينا بعد المساء اذ يعودان الى بيتهما في القرية ، ولكن كما ترين هناك النار في الموقد وغرفنا في الطابق العلوي جاهزة لاستقبالنا والطعام لا ينتظر الا ان نأكله .

سألته بعصبية ظاهرة الى حد ما :

- لماذا لا يبقيان ؟

اصابتها رعشة صغيرة وهي تفكر في البحيرة المحيطة بالبيت ، تفصلها عن باقي العالم ، وأضافت بصوت غريب :

- هل في البيت اشباح ؟

- طبعاً لا ، غير ان الايطاليين خرافيون . ومنذ ان تركت جدتي الجزيرة لتذهب وتعيش في روما ابتعد أهل القرية عن فيلا فورتوناتو .

- لماذا . . . ماذا حصل هنا يا روداري حتى جعل هؤلاء الناس خرافيين بالنسبة الى المكان ؟

ألقى نظرة على البحيرة من خلال النافذة ثم قال :

- البحيرة . . . وأنا لم اعرف امي ابداً . . . لم تحصل لي فرصة التعرف عليها بسبب البحيرة اياها . فقد سمعت والدتي جدتي تقول بأنه يجب تقديم العناية الكافية لابنها على يد حاضنة متخصصة وحسب التقاليد المرعية في عائلة فورتوناتو لأن الأمهات يفسدن اولادهن بتدليلهم خاصة اذا تذكرنا أن والدتي سابينا ربيبة مزارع عاشت في محيط يؤمن بأن الولد يجب ألا يفارق امه لا في الليل ولا في النهار .

توقف روداري عن الكلام وبدا وجهه في ضوء القمر الضارب على

زجاج النافذة رومانياً ، قاسي النظرات متحجراً والغضب يملأ قلبه .

- سمعت سابينا هذا الكلام من خلال باب غرفة الطفل ، وبرغم كونها زوجة والدي كانوا لا يزالون يعتبرونها شبه متوحشة ومندفعة وعفوية تحب الجري بين الأشجار حافية القدمين . وعليه قررت ان تهرب مع طفلها الى أهلها في المزرعة . فبعد أن أوى كل الى فراشه تسللت ولفت الطفل ونزلت الى شاطىء البحيرة بكل هدوء . وضعتني على التراب وأخذت تفك حبل المركب ، واذ هي كذلك سمعت شخصاً يجري نحوها ليوقفها فارتعبت وقفزت الى المركب وهي لا تعلم ان والدي هو الذي ناداها وحاول منعها . وتملكها خوف شديد من ان جدتي المستبدة سوف تعاقبها على فعلتها هذه وبدأت تجذف بكل قواها وكان وسط البحيرة عميق وتتقاطع فيه مختلف المجاري التي تصب من البحر وما أن وصلت الى هناك حتى تقاذفت المجاري المركب وقلبته . كان والدي قد لحق بها سباحة ووجدها نصف ميتة عندما حملها الى البر ، ولكنها ماتت من ذات الرئة بعد يومين . لم ينس والدي امي سابينا ووافته المنية هو الآخر في الحرب .

مشى روداري نحو المدفأة ورمى سيكارته في النار وقال :

- حدث ذلك منذ زمن بعيد . ومنذ ان هجرنا الفيلا دارت اشاعات بأن شبح سابينا يظهر في الليالي المقمرة ويسبح عند الشاطىء بحثاً عن الطفل الذي ارادت الاحتفاظ به كل حياتها .

- روداري . . .

خرجت هذه الكلمة من فمها كصرخة ترجوه بأن يتوقف عن الكلام عن ذكريات محزنة وهما في شهر العسل ، وهي تعرف انها تتقاسم قلبه مع ذكرى فتاة اخرى ومع شبح والدته الشابة . ارادت أن تلطف الموقف ولكنها ايضاً تريد أن تكون اكثر من مجرد وسيلة للنسيان .

- عندما تنظرين اليّ تبدين وكأنك كلك عيون . هل اقلقك مجيئك الى هنا يا عزيزتي ؟ هل تفضلين العيش في مكان مأهول بينما نستطيع أن نكون وحدنا على هذه الجزيرة الصغيرة ؟

- احياناً ، بين الناس ينسى الانسان ما فيه بكل سهولة يا روداري .

- وبسهولة اكبر مما لو وجد نفسه بين الذكريات . تعالي !

وأمسكها بيدها وأضاف :

- سأريك الغرفة حيث جهزت دلفينا عشاء عرسنا . انه لغريب حقاً ان احب هذا البيت بقدر ما اكرهه .

- الحب والكراهية توأمان .

لا مهرب من تأثير لمسة يده وسطوة ابتسامته . . . الابتسامة الحزينة التي أوقعتها في حبه قبل أن تتحقق من انه كان من الحكمة مغادرتها ايطاليا . اما الآن فلا الجبال ولا البحر تحميها من نظرته النفاذة حتى لو وقفت حائلاً بينها وبينه .

خرجا من الصالون الى الردهة حيث رأت تمثالاً رائعاً لرجل واقف على أرضية من المرمر يغطي معطف فضفاض كتفه وذراعه الأيسرين . ربما هذا تمثال ابولو ، رمز الشمس الذي طارد الحورية .

- ها هي الغرفة .

قادها الى غرفة صغيرة وذهلت لما رأت من فارق بينها وبين الصالون الكبير . كان سقفها مقنطراً تعلوه قبة تزخرفها طيور من الجص ، وفيها مصباح مستدير بلون الكهرمان يتدلى من سلسلة وفي زاويتها مقعد بشكل هلال تتوسطه مائدة منخفضة لتناول الطعام . وكان نور المدفأة ينعكس على الصحون الممدودة والفاكهة ذات الألوان الزاهية ومن بين الصحون صحن من الصيني مليء باللوز الملبس بالسكر وهو الحلوى التقليدية في الأعراس الايطالية .

- هل سنبدأ بالأكل الآن ؟ ام تفضلين ان تصعدي لتغيري ملابسك ؟

- ماذا تريدني أن افعل ؟

ابتسمت له بوجل ، فقد هدأت الغرفة المقنطرة من شعورها بالانقباض لأنها اعتبرت غرفة كهذه مكاناً مثالياً للتواعد الهادىء ومكاناً يلتجىء اليه الانسان بعيداً عن وجوه الأسلاف التي تطل من الجدران . اجابها روداري :

- احب ان اراك مرتدية الثوب المخملي الذي اشتريناه في روما والذي سيدخل البهجة الى قلبنا في هذه المناسبة .

- اي الثوب الفلورنتيني الذي اصررت على شرائه لي . لكن فستاناً كهذا مقصود لجمال مغرٍ .

قربها اليه وبعد أن قبل عينيها قال :

- لك عينان ساحرتان فيها هدوء لون المخمل والبنفسج . افلا

تستحقين لبس هذا الفستان مساء زواجنا ؟

وتأكد لها من كلامه ان هذه الليلة لن تكون ليلة عادية من ليالي حياتها ، وانها ربطت عمرها بعمره في السراء والضراء وأمامها اما السعادة واما التعاسة .

صعدا الى الطابق العلوي ورأت على الجدران رسوماً لرجال ونساء من آل فورتوناتو . الرجال وسيمو الطلعة قساة النظر ، اما النساء فأزياؤهن من الطراز القديم وفي نظرات بعضهن علائم البهجة والبعض الآخر علائم الندم ، ربما لأنهن تزوجن من آل فورتوناتو . . .

أثارت كل صورة منها اهتمام إلفي وعبثاً انتظرت أن يدلها روداري على صورة والدته أو صورته وهو طفل .

وتوقف روداري في رواق بدرابزون يطل على البهو حيث دنا على رسمين وقال بصوت قاس :

- هذا جدي وهذه كما تعرفين ، الكونتيسة التي ما زالت على قيد الحياة ، وكما حكمت بقبضة من حديد حياة افراد العائلة تحاول ان تتحكم بحياتي . أتلهف لتلك اللحظة التي سأواجهها فيها بزوجتي الانكليزية بعد أن تأملت ـ لا بل امرت ـ ان اتزوج ايطالية من طبقة رفيعة . ولا تعلم الكونتيسة بالصدمة التي يخبئها لها القدر .

خافتها كلماته هذه لأنها تريد ان تقبلها اسرته وتحبها ، ولكن دل كلامه على انه يريد ارباك اقربائه باختياره الزوجة التي ارادها هو لا هم . سألته إلفي :

- هل تزوجتني يا روداري لتنتقم ؟

اتقدت عيناه شرراً ولكنهما لانتا قليلاً وقال :

- اي رجل يتخذ هذا الموقف المتطرف حباً بالثأر الجميل ؟ اراك ناعمة وحلوة يا عزيزتي عندما تنظرين الي وعندما ارى التحدي في عينيك والحنو في نظرتها . هل اثير حنوك كروداري الرجل ام كروداري الطفل ؟

- لا ادري . انت ما زلت غامضاً في نظري .

نعم . ما زال ذلك الرجل الذي رأته في الليلة الأولى في فندق الألب واقفاً وحده بينما كان باقي نزلاء الفندق يغنون وينشدون امام المدفأة على انغام الأكورديون وطقطقة الكستناء وهي تشوى في النار . كانت حينذاك تقوم باسعاف احد المرضى عندما نزلت لتأخذ كأساً من الحليب لمريضها

ومرّت بجانب وداري بدون أن يراها . وجدته رجلاً نحيلاً مستوحداً ووشيقاً كأحد مصارعي الثيران وهو يتأمل الليل وشعره يلمع في نور النجوم المتلألئة في قبة السماء .

وفيما هي تنظر الى رسمي جذبه أمسك بيدها وقال معلقاً على كلامها :

- ليس من الممكن أن يعرف شخصان بعضهما بعضاً معرفة تامة وهما على عتبة حياة جديدة .

ضغط على خاتم الزمرد في اصبعها وقادها الى غرفة النوم ، وحين اشعل النور ادارت عينيها فرأت سريراً عريضاً مغطى بالحرير يتوّج رأسه ما يشبه العرش وبهرها ذلك .

- هذا الباب يؤدي الى غرفة الملابس خاصتي .

- وأين غرفة الحمام ؟

دلها على باب آخر . يؤدي الى مغطس الحمام المبني في ارضية الغرفة من حجر الفسيفساء وعلى الجدران مرايا طويلة وفي الحمام اباريق عدة .

والفيلا على وجه العموم خليط جميل من القديم والجديد قدّرت إلفي هذا المزيج حق قدره بفضل خيالها وواقعيتها .

- هذه رفاهية حقيقية .

- هذا لا يجعلك تندمين من وجهة زواجنا العملية . وشقتي في روما موجودة في قصر مرمم على نهر التيبر .

- من ظن ان الممرضة لويد ستغرق في محيط انيق كهذا ؟

ابتسمت بمرارة لأنها تفضل حبه لها على هذه الرفاهية . وفجأة ادارها بحركة سريعة وقال :

- انت الآن زوجتي ، السيدة إلفي ، بل إلفيا فورتوناتو . من ذا الذي فكر في تسميتك إلفيا ؟ انه يطابق اسمي تماماً .

- لماذا لا تدعى الكونت فورتوناتو ؟

- هل تحبين ان تكوني كونتيسة ؟ سألها ساخراً وأضاف مبتسماً :

- انا لا استحب الألقاب ، وهذا يسبب سخط جدتي . فقد اسقطت هذا اللقب من اسمي عندما اصبحت كاتباً . اردت ان انجح كفرد لا كقطعة من سلالة .

- انت عنيد يا وداري .

- طبعاً . نحن عائلة انفعالات وعواطف أفرادها دائماً أقوياء . رغبات بقوة ضغائننا ولا نتسامح بسهولة . لم تعامل الكونتيسة والدتي بلطف مع انها تعشق شقيقتي هلين التي تكبرني بسنة وربما لأنها انتزعتها من أحضان امي بلا مقاومة . وعندما انجبت صبياً ولداً ارادته أن يكون ولداً قوي الشكيمة . . وغاية المرأة الايطالية في الحياة هي أن تنجب صبياً .

وبعد هنيهة اضاف وهو يمرر اصبعه على عنقها بحنان :

- إلفي . . . اني لأتساءل اذا كنت ستنجبين لي صبياً .

تورّد وجهها . لا يتفوه غير الزوج اللاتيني بكلام كهذا امام فتاة حديثة الزواج . اما الزوج الانكليزي فقد يتكلم عن الدفء المرتقب في الطقس وما عليهما ان يعملا لتمضية الوقت . لم يحمر وجهها من قبل مثل اليوم وودت لو تستطيع ان تهرب لتختفي عن أنظار هذا الرجل الذي قد يفرض عليها ما يشاء حسب مبررات شرائع الزواج الروماني .

تطلعت فيه الآن كما تطلعت اليه في الكنيسة أثناء حفلة عقد القران بينما كانت تتراقص أضواء الشموع وظلت تتلألأ حتى نهاية الحفلة تقريباً عندما انحنت شمعة تشتعل تتقطع وتلقي بظل حولها وعندما تفرست في وجهه رأته ذا نظرات الآمر الناهي كأنه ولد ليأمر وليحبه الناس ولو بخوف .

قال مع ابتسامة خفيفة في زاوية فمه :

- لا تنظري اليّ هكذا . لكل شيء وقته ، ويجب أن اتذكر انك انكليزية كانت لها مهنة ثابتة قبل أن ادخل حياتها .

- ومهنة مفيدة جداً . وافترض بانه يجب ان اتخلى عنها الآن ؟

- طبعاً يا عزيزتي لك زوج الآن وبيت تعتنين به ، وزوجك يشعر بالجوع ويجب أن يتناول عشاءه بعد لحظات .

تركها في غرفة النوم وخرج . اما هي فأخرجت الثوب الذي طلب ان ترتديه ووضعته على السرير . ترى ماذا ستقول صديقاتها في بيت الممرضات لو رأين الآن الممرضة لويد ذات العينين الرماديتين والتي كانت تكسب ثقة مرضاها ؟ جالت بنظرها حولها وتأملت في الأثاث الايطالي المرصع وسمعت الساعة تعلن الوقت بدقات معدنية لطيفة . هنا وفي هذه الغرفة الجميلة ستمضي ليلتها المقبلة مع وداري الذي اقنعها بأن تصبح

زوجة له بدون أن يعلن حبه لها حتى بكلمة واحدة .

هل هو مدفوع الى الزواج فقط لثأر ، فقد كان امل الكونتيسة أن يتزوج ايطالية . وتشعر إلفي بكل تأكيد انه كان يحب فتاة ما ، ولكن حدث شيء بعكس ما تمناه ، لكن أياً كانت تلك الفتاة فقد تلتقي به في المستقبل رجلاً متزوجاً .

تأملت نفسها في المرآة ذات الاطار المزخرف وعكست المرآة فتاة انكليزية مئة في المئة وعنصراً ليس في محله في هذه الغرفة الايطالية . جلدها ابيض زهري وبلا عيوب . شفتاها تدلان على الوجل ولكنهما تميلان الى حب الدعابة . عيناها واسعتان وشعرها مقصوص حتى الكتفين يثني الى الداخل . قليلون من الناس يعتبرونها عادية ولكن أقل من ذلك يلتفتون نحوها للاعجاب بها . وهمست لنفسها متسائلة :

- لماذا يا روداري ؟ لماذا انا ، لا غيري ؟

نزلت الى الطابق السفلي في ثوبها الفلورنتيني المخملي وكانت تحس بوزنه الثقيل على جسمها ورفعت بيدها جزءه السفلي تسهيلاً للمشي ، وبرز من تحت طرفه لمعان خفيها المفضضين . كل ذلك تطابق مع السلم الأسود والذهبي . وشعرت الآن انها تبدو عروساً من القرون الوسطى في طريقها لاستقبال عريس يبدو في مظهره وهيئته آتياً من عصور الأخذ بالثأر .

وصلت عند اسفل السلم وتوقفت لتسكين ووضعت يدها على رأس عمود الدرابزون فلمع خاتمها وتوهج كالنار أو كالدم في سواد الخشب .

الهدوء يخيم في كل مكان ولا يسمع غير صوت الريح حول البيت وحفيف الستائر المخملية المدلاة على جانبي نوافذ البهو .

- روداري . . .

تلفظت بهذا الاسم وهي تبحث عنه . وظنت انه خرج من غرفة النوم ليجهز بعض الأشياء للعشاء فلا خوف عليها من طيف سابينتا الحزين لكن كما احبته سابينتا تحبه هي الأخرى وتريد أن تبقى معه .

مشت في البهو وانعكست صورتها في مراياه في ضوء ينبعث من أقفاص حديدية ويتوج رأسها بهالة غريبة من النور . وبدا كتفاها من خلال فتحة الفستان عند العنق رشيقين ابيضين ، وتساءلت عما قد يفكر فيها عندما تفتح باب الغرفة . لكنها فوجئت عندما وجدت الغرفة خالية .

أين عساه يكون ؟ اقتربت من المدفأة التي كان يخرج منها اريج كالبخور

من احتراق حطب السرو . وهذا ذكرها بالكنيسة حيث اقسما على ان يحب احدهما الآخر ويحترمه . ركعت امام المدفأة على ركبتيها ومدت يديها فوق النار لتدفئهما كأنها تتضرع الى السماء . وكل طقطقة احتراق وكل صوت خفيف من ثوبها يزيد من سطوة السكون و . . . الوحدة . حدقت في قلب النار ولكن أفكارها كانت بادرة . الرجل الذي يولي امرأة اهتمامه الكلي لا يتركها هائمة تنتظر وتسمع في كل حركة مشية اشباح من حولها .

يقال ان سابينتا تسبح نحو الشاطىء في الليالي المقمرة لتبحث عن ابنها الذي انتزعه منها الآخرون . وابنها هو الآن في حوزة إلفي التي تلقي نظرة هنا وهناك من حين لآخر وهي متوترة الأعصاب . هل احبت رجلاً تشك فيه ؟ هذا الرجل الساحر والمتغطرس الذي يرى ان تتركه زوجته يفعل كما يشاء في كل شيء ؟

وفيما هي تفكر في ذلك انفرجت ستائر النافذة بحركة مفاجئة ورأت يداً سمراء تزيحها ويظهر شخص زوجها . فقفزت مذعورة وصرخت صرخة خفيفة . لم تره يبتسم بل كان شعره الأسود مبللاً وتحمل يده الأخرى منشفة ورأت صدره عارياً مغطى بشعر اسود وتتدلى فوقه سلسلة . اقترب منها ورأت ان ساقيه أطول من المعتاد لأنه كان مرتدياً سروالاً ضيقاً . نظر اليها في ضوء المصابيح الهادئة التي كان النور يشع منها كأنه بلون القرنفل .

حدق روداري فيها وبدت نظراته من خلال رموشه كأنها نيل تلمع فيه البحيرة . قال لها :

- يدل مظهرك كأنك آتية من عصر آخر . ستكونين ساحرة نادرة هذه الليلة يا عزيزتي .

سمعته تماماً ولكنها فقدت تأثير كلامه عندما رفعت نظرها اليه . كان يسبح في البحيرة غير مهتم بأشباح جزيرة فورتوناتو . هناك في مياه البحيرة المعتمة وعاد اليها اشبه بالقرصان .

- أ . . . أنا مسرورة لأنك احببت الثوب وأبدو رائعة فيه ، الاّ انني اشبه امرأة مرتدية لباساً في حفلة تنكرية .

- هل اتنكر انا الآخر ؟ (سألها مستهزئاً) بأي شيء اتنكر ؟

- انك لا تحتاج للتنكر اذ تبدو كأنك جبت البحار طولاً وعرضاً بحثاً عن قطع اسبانية ذهبية .

- أي انني قرصان ، اليس كذلك ؟
- بلا ريب .
- هل تريدينني أن أرى ان كان بين كنوزي ما يلائم ثوبك الخلاب ؟
يتكلم روداري الانكليزية بلا عيوب ولكن بلكنة تعطي معنى خاصاً لبعض الكلمات . فقد احمر وجهها عندما استعمل كلمة « خلاب » مثلاً . وعلقت قائلة :
- انا . . . انا لا اريد ان تظل تعطيني اشياء بلا انقطاع . ارجوك يا روداري .
- ارجوك يا إلفي (اجاب ساخراً) أنت المرأة الوحيدة التي تستطيع أن تجعل الكلام يعني طلباً بل توسلاً . لا تطلبي ابداً من رجل الا يقدم لك هدايا بخاصة اذا كان يحق لهذا الرجل أن يقدم وان يأخذ .
- اي اقدّر علبة الأزرار الجلدية كثيراً ، وأنت تبين ان في الحياة الزوجية المرأة تقدم نفسها .
ثبت نظره في نظرها وشعرت بتأثير قوته والاعتداد بنفسه وكما برزت لعينيها معالم عضلات صدره وكتفيه تحت القميص الملتصق بجسمه المبلل ورأت فيه ايضاً خطر الحيوية الكامنة في جسم هذا الغريب وتساءلت عن مدى وحشيته في علاقته معها . وعلقها الخوف عندما ضحك وهو يسير نحو الباب قائلاً :
- قدمي الطعام . لن اتركك تنتظرين طويلاً .
ذهبت الى الطاولة واخذت ترفع أغطية الصحون التي كانت على نار خفيفة مستعملة قطعة قماش لتحمي يديها من الحرارة . كان هناك المليون بصلصة الزبدة ، فطر وسلوى بالصلصة الحمراء ، شرائح عجل مع خضار ، وسلطة شهية بالفواكه . رائحة الطعام كانت ذكية وأخذت سيدة البيت الجديدة تهيء كل شيء بعناية وسرور فائقين . اما الأقداح فكانت من البلّور الصافي من صنع البندقية ولما ضربت على احدها بطرف اصبعها رنّ رنيناً موسيقياً ناعماً . ولمست بيدها ازهار الورد الأحمر المرتبة في أناء جميل وألقت نظرة على اللوز والملبس بالسكر الذي قلما تخلو منه مائدة عريسين في توسكانا .
فتح الباب وتوترت اعصابها ، اذ ليس من السهل عليها ان تكن الحب لروداري . فانه غاز كالحب ذاته .

- نحن محظوظان يا إلفي . لدينا الطعام والشراب ولا أحد سوانا يقلقنا . اقترب منها وألقى بنظرة على المائدة وعلى النار في المدفأة والستائر المسحوبة وابتسم تعبيراً عن تمتعه بوجود إلفي له بكليتها . هذا أول حب لها في حياتها ولا تستطيع ان تعرف اي الشعورين يسبق الآخر . . . الشعور بالخوف أو الشعور بالفتنة .
- من المحتمل أن يكون احد اجدادي قد سطا على دير وسلب منه هذه السبحة .
مد يده ولمس السبحة المعقودة حول عنق إلفي وهي مصنوعة من الصدف المعروف بعرق اللؤلؤ وتحليها قطعة زمرد براقة . السبحة جميلة جداً وزادها حجر الزمرد تألقاً . إلفي موجودة بين يديه وتربطها السبحة به ، وأحست في لحظة توتر بأن الظلام اكتنفها وبأن قوته سطت عليها وأدخلت الى قلبها سحراً مقلقاً لا تستطيع أن تسميه حباً . . . حسب الحب الذي تحلم به .
أوليست اللآلىء والزمرد رمز الطهر والانفعالات القوية ؟ انها تنفعل كلما لمسها وتحس بالحاجة الى هذا الرجل الغريب المديد القامة الذي تزوجته ورغم كل ذلك فقد جفلت قليلاً وتراجعت الى الوراء . ضحك واتجه الى المائدة وسحب كرسياً لها . لا يتوقع تجاوباً منها الآن .
جلس قبالتها وسكب لها شراباً من ابريق عليه مسحة من الخطوط الفضية . فهو يحب أن يحاط بأشياء جميلة . وودت إلفي لو تعرف أفكاره وهو يشاركها في اكل السماني والعنب واللوز الملبس . هل يفكر في وجه آخر وصوت آخر ، في امرأة برشاقة الورد اخاذة الجمال ؟
ربما قرأ افكارها فأخذ يحدثها عن ايطاليا وعن الأماكن التي سيزورانها ، ومنها روما . انه إيطالي حتى العظم ويجري في عروقه دم في منتهى الرقة . انيس ولطيف ولكن شيطان الشر نائم في عينيه السمراوين .
قال لدى أول التقاء لهما ان فيها صفة اللطف وان قلبها كبير ، ولكنه بدأ يسلبه والبقية الباقية من قلبها تستعملها للدفاع عن النفس اذ لا يجب ان تنسى ان شخصاً غيرها سلبه قلبه .
- نحن متكاملان هنا ولا ينقصنا شيء . نحن وحدنا وبعيدان عن العالم . لا يمكنك ان تقدري يا إلفي هدوء البال في بعدنا عن الناس .

كانت تستمع اليه يتكلم بلكنته الايطالية وصوته الثابت مما جعل انكليزيته شيئاً مستحباً لها ومثيراً . ولاحظت كيف تناسق القدح العتيق مع جمال يده النحيفة التي كانت بلا خاتم . وجوهرته الوحيدة ساعة وجهها مذهب برباط من جلد وأزرار اكمامه مرصعة بحجر فريد أسود . انه رجل لا يستعمل ثروته لتزيين جسمه ولكنه يلبس بزات مخاطة بمنتهى الكمال .
تكلم عن بساتين الحمضيات المحيطة بالجزيرة كحدائق بابل المعلقة التي تتحول الى لون الذهب في نور الشمس بينما يتحوّل لون مزارع الزيتون الى اللون الفضي . قال لها :
- سأجعلك تتذكرين شهر عسلك الى الأبد .
نهض من مكانه وأدار الفونوغراف فارتفعت أنغام الموسيقى وصوت يغني اغنية تعرفها ، كلماتها بدت غامضة كعطر من زمن غابر ، ثم احتواها بين ذراعيه وراقصها على أنغام لحن منسي . وسألها :
- هل تعرفين كلمات الأغنية ؟
- كلا ، لكني اتذكر انها حزينة .
- الحزن جزء من الجمال .
ازاح الستائر وخرجا في ظلال الظلام الفضي . ورأيا أوراق نبتة المانغوليا بلونها الأصفر الشاحب . القمر يظهر ويختفي في الغيوم . تأملت الا يكون مظهر القمر بهذه الصورة علامة لسوء الطالع .
- انظري هنا وسيسحرك القمر .
رفع ذقنها بيده فأصبح وجهها امام وجهه ، ثم أضاف :
- هناك شيء رومانطيقي ومثالي في العينين الرماديتين برموشهما المتدلية . انهما عينا عذراء شابة تنظران اليّ بطهر ولكن مع مقدار ضئيل من الفزع . ان عينيك تطرحان مئة سؤال عني ولا استطيع الاجابة على أي منها في الوقت الحاضر . ولكني استطيع أن أقول لك اني لا اريد احداً غيرك هذه الليلة . واذا صدف وأن شخص ما ليأخذك مني اعتقد أني سأتحول الى مجرم .
- يا روداري .
قالت بصوت مرتجف ثم توقفت .
يجب أن تطلعه على ما جال في خاطرها طيلة المساء فقالت :
- ماذا لو طلبت منك يا سنيور ان تعطيني الوقت الكافي لا تعرف عليك

كما يجب ؟
- ارجوك ان توضحي .
تكلم بصوت هادىء الا ان الفي أجفلت قليلاً من لهجته الحازمة فضغطت بيديها على الدرابزون . وسمعت حفيف أوراق الشجر وصرير صرار الليل المستمر ورأت الحباحب تتلألأ بين أشجار الكرمة . كان وجه البحيرة يعكس ضوءاً فضياً مما يضفي حزناً على القلب الحزين ، ولكن روداري يلتجىء الى العاطفة التي تجلب النسيان .
- انت تعرف ما اعني بقولي هذا ، وتفهمني .
- ما اعرفه فقط هو اني تزوجتك اليوم وسأجعل منك زوجة لي هذه الليلة .
- ارجوك . . . هل ما اطلبه كثير عليك؟ امهلني بعض الوقت لاعتاد عليك .
- افضل وسيلة لتتعرفي عليّ هي عندما تكونين في احضاني .
كان وهو يتكلم يلعب بحبات السبحة وحجرها الزمردي . . . حجر العشاق . ثم أجاب قائلاً :
- انك لست خجولة بل وجلة فحسب .
- كلا . . .
وانتزعت نفسها منه وافلت مشبك السبحة فطارت في الهواء وبدت تحيط من الخيط وهي تهوي على الصخور . وتبع ذلك سكوت رهيب وسمعت شتيمة ايطالية تخرج من فمه وأحست بذراعيه القويتين تديرانها نحوه وهو يقول :
- سنبحث عن السبحة غداً صباحاً .
- لكن سيجرفها المد الى الماء .
- وسيؤسفني ذلك ، لكني لست مستعداً لان انزل الآن لابحث عنها في ضوء مصباح كهربائي .
رفع عينيها الى عينيه وقال :
- هل اعتقدت باني سأبحث عنها الآن ؟
- انها جزء من ارث عزيز ويمكننا البحث عنها معاً .
- سأجدها قبل مد الفجر ، وستفيقين وهي حول عنقك .
كانت حركات عينيه واضحة ومفهومة ولا مهرب لها من الرغبة فيهما ومن قبضة ذراعيه . انها له الآن وتحت رحمته في الفيلا فورتوناتو .

٣- الشك القاتل

قد لا تعرف ناراً أكثر تأججاً من هذه. . . هكذا كانت افكارها طيلة الأيام التي تلت تلك الليلة، أيام امضتها تحت السماء الايطالية وهي تستكشف جزيرة الحمضيات وزوارق الصيد ذات الاشرعة البراقة والبيوت الصغيرة المبيّضة بالكلس اتقاء لحرارة الشمس التي تلمع منذ بزوغها حتى تغزو باحات الفيلا عند الغسق، ترافقها أصوات الصرصر والسحالي.

كانت تحافظ على شعرها من التطاير في اهواء برباط زهري، طرفاه فراشة تتماوج وهي تهبط السلم الحجري لتلاقي زوجها الذي احتضنه اهل الجزيرة. وهو يحب ان يختلط بهم ليستمع الى حكاياتهم ومشاكلهم حيث يجد مادة لعمله كمؤلف.

رأته واقفاً عند شجيرة نخيل يدخن سيكاراً وعند قدميه سلة فيها عدد من القريدس والسرطانات ذات الحجم الكبير. كان لابساً قميصاً مفتوحاً وبنطلون صيد، ومع ذلك كان يحتفظ بهيبته. وروداري ليس من النوع الذي يأوي الى فراشه في ساعة متأخرة من الليل بل تدفعه حيويته الجامحة الى القيام بنشاطات جمة. وتعرف إلفي انه يحوم في انحاء حدائق الفيلا اثناء الليل كأنه يبحث عن شيء ما. . . ربما المرأة الاخرى؟

كان يتأمل في الماء عندما اقتربت منه ولكنه لم يلتفت اليها بالرغم من انه لا شك سمع صوت خطواتها على الحصى. وبدا مزاجه على انه هذا الصباح متجه بافكاره الى عالم آخر، عالم ما وراء هذه الجزيرة التي تشاركه حياته فيها والتي درجت على محبتها.

لاحظت مسحة من الحزن وهي تنظر الى ملامحه الجانبية وهو مستغرق

غارقاً في افكاره في وهج الشمس. كم تحب وترهب هذا الرجل الذي هو بالنسبة اليها محب وغريب في آن معاً. ولم تتفوه بكلمة واحدة عندما وقفت الى جانبه بهدوء، لانها لا تحب التطفل ولا ترغب فيه. وصل الى انفها اريج الاعشاب وتبعت نظرها فراشة سوداء تطارد أخرى زرقاء ثم اختفتا وراء دوالي العنب التي تتسلق الجدار.

كانت تحدّق كأنها مسمّرة في مكانها وبدا لها ان الطبيعة تفضل القوي على الضعيف، وجفلت وتألمت عندما رأت سحلية تطبق فكيها على شيء لامع ومتحرك.

- انت كثيرة الحساسية يا عزيزتي الصغيرة. الحياة غابة والحب جوع ولا يجب ان يصدمك ايها أو ان يسبب لك المأ.

- هل ظهر عليّ اني صدمت؟

حاولت بهذا السؤال ان تظهر في مظهر الشجاعة وخفة الروح لكنه رمق وجهها بنظرة خاطفة ثم قربها منه وقال وهو يبتسم ساخراً:

- لا تحاولي مطلقاً ان تكوني امرأة مجتمع، هذا لا يليق بك وانت تلاتمينني كما انت.

- وحلة وخرقاء؟ اي تريدني امرأة يعتبرها اهل الجزيرة بنتاً تبنيتها بدلا من امرأة تزوجتها. هل يعتقدون باننا متزوجان؟

نظر اليها نظرة جعلتها تحمّر وقال:

- ارجو ذلك. عيناك كلها براءة وطهر ابدو معهما كأني رجل دنيء انتزعتك من ملعب في مدرسة ولكن اهل الجزيرة يعرفونني جيداً وبعد العيش شهراً كاملا معك يا إلفي بدأت اعرفك. هل استطيع ان اعانقك؟

- كلا. . . ارجوك.

- عندما ترجينني تزيد رغبتي.

- لم اتناول فطوري بعد. لقد انتظرتك آملة في الذهاب الى ذلك المكان الصغير حيث يطبخون سمك البلم على فحم الحطب ويقدمونه مع الخبز الاسمر اللذيذ والقهوة.

- يا لك من خبيرة صغيرة! انك تتعلمين كيف تنتقين احسن طعام وتتحولين الى عالة في درس الحياة الرغيدة منذ ان اصبحت لي.

قالت ضاحكة:

- تكلم كأنك اشتريتني كحيوان مدلل مطلوب منه ان يتعلم الكياسة ليعجب اصدقاءك الانيقين في روما.

جذب بيده خصلة من شعرها ولوح بها كمن يلوح بشرّابة وقال:

- هراء. اريدك ان تقتدي رقة العيش. هذا كل شيء. ولا اريدك ان تفقدي شيئاً من حرارتك الخوهرية. واذا تحولت الى مجرد لعبة فساضطر الى ترويضك.

تسارعت دقات قلبها واحست بشيء يسري في جسمها عندما انزلقت يده وشد بذراعه على خصرها.

- ستبقى عيناك عيني عذراء وسيبقى فمك جميلاً. هذان شيئان احبّ ان يدوما. حاولي ان ترفضيني وسترين كيف سانقلب الى وحش.

- لن تعطيني المجال لارفضك.

- هل تعنين ليلة زفافنا؟

- نعم.

- هل تكرهينني بقدر ما تتصورين؟

- كلا.

- كنت وعدتك بانك ستحدين السبحة حول عنقك عند نهوضك من النوم وها هي كما ترين مع اللآلىء الملتصقة بجلدك الناعم. وفي ظني اني سأتذكرك دائماً بهذا الشكل.

لمس عنقها عند اللآلىء واحست كأن الزمردة احرقت جلدها. وجعلتها لمسته تنتفض. ونسيت تلك المرضة الوجلة المتفردة بنفسها وهي تقوم بواجبها خير قيام وبكل هدوء. هنا روداري فقط بذراعيه القويتين تطوقانها حتى تغفو وتستيقظ مع الشمس في الغرفة المترجحة برائحة البحيرة. وكثيراً ما تجد نفسها وجلة عندما تفتح عينيها وتبقى هكذا الى ان يعود من جولاته المبكرة في حدائق الفيلا. وتسير الامور معها كأنها توقف كل ذكرى ماضية من اجله هو كلما اخذها بين ذراعيه. انه لا يعاملها بقسوة لكنه لم يقل لها ابداً انه يحبها. وفي الظلام تشعر بحسرة في قلبها وتود لو تبكي. عندئذ يضع رأسها على صدره الى ان يغمض عينيه وينام. كان يثير احساسات شبابها غير المتوقعة وفي كل يوم تمضيه معه وكل ليلة تلفها تطلب المزيد من حبه. وتريد ان تكون الفتاة الوحيدة التي يكنّ لها الحب. قال هامساً في اذنها:

- نحن متجانسان. فماذا نريد اكثر من ذلك؟

- نريد فطوراً...

اجابته بمرح. فضحك ودلّى سلة المحار عن كتفه وقال:

- سنقدم هذا لسيزار وبالمقابل سيقدم لنا شيئاً نأكله مع سمك البلم.

- اراك منشرح الصدر يا روداري.

- نعم، في هذه اللحظة. لا تلازم السعادة الانسان كما يلازمه انفه. ولكني اشعر حالياً باني استطيع ان احملك على كتفي واصعد بك التل. هل تريدينني ان افعل ذلك؟

- لا، شكراً.

وسبقته صاعدة المرتفع المعشوشب الذي يؤدي الى المقهى القديم الظريف ذي المصاريع المهترئة والطاولات المخلعة المنتشرة في حديقة غنية باشجار الفاكهة. كان هذا المكان مجده الغابر ولكن صاحبه سيزار لم يفقد براعته في توضيب المأكولات البحرية. ويرتاد هذا المقهى الكائن على تل معظم زوار الجزيرة.

لسيزار حفيدة اصبحت محور كلام الجزيرة. فقد هربت الى روما حيث تورطت مع رجل محتال وانجبت منه لكن سيزار لم يغلق باب بيته في وجهها. فهي في الجزيرة مع طفلها منذ بضعة أسابيع وتقلق إلفي كلما رأت هذه الفتاة المسكينة منطوية على نفسها وهي تهز مهد طفلها. لم تترك نكولينا المقهى ابداً كما لم تكلم انساناً. وكلما دخلت إلفي حديقة المقهى برفقة روداري حدقت نكولينا فيهما بعينيها السوداوين. واذا صدف ونظر روداري اليها اخفضت رأسها وبدت مثل امرأة تعبر عن توبتها بصمت.

واستولى القلق على جدها سيزار اذ بدأ الهزال يصيب حفيدته تشوقاً الى اللعين الذي لطخ سمعتها الطيبة. هل في امكان السيد ان يساعد بصورة او باخرى؟ هل يكلم هذه الحمقاء ويعيدها الى صوابها؟ فطالما هي في بيتها وفي امان سينسى سكان الجزيرة فعلتها وسيتقبلونها كواحدة منهم. هذه أمور تحدث والسيد من رجالات المجتمع ويفهم ذلك.

قطب روداري حاجبيه والتفت الى إلفي فجأة وقال لها:

- انت من عمرها ويمكنك ان تقنعيها بان نهاية العالم لم تأت بسبب غلطة. اكدي لها انها ستتعرف على شخص ما.

ولما نظرت إلفي اليه والشك في عينيها، قال لها:

- اذهبي مع سيزار. وانت كزوجتي يجب ان تتعلمي كيف تعالجين الأمور في الحالات المربكة.

نهضت الفي وتبعت سيزار الى غرفة حفيدته. وجدتها جالسة على سريرها تبكي والطفل يصرخ فحملته إلفي ورأت انه يجب تغيير ملابسه. كان جلده زيتوني اللون وشعره مجعداً اسود وعيناه كستنائيتين برموش مبللة بالدموع. وبعدما رشته بالمسحوق واراحته اخذ يحك رأسه بجسم إلفي التي اخذت تلاعبه ريثما تتوقف امه عن البكاء على نفسها.

وفي النهاية انتصبت الفتاة جالسة ومسحت دموعها بيدها. ثم نظرت الى إلفي بغيظ وتفوهت بشيء معتقدة بان هذه الفتاة الانكليزية لا تفهمه. لكن إلفي كانت قد درست الايطالية قبل ان تتوظف في جبال الالب والمحادثات المتبادلة مع روداري ساعدت كثيراً في تحسين معرفتها بهذه اللغة وروداري يرغب في ان تتكلم لغته بطلاقة. وبالفعل برهنت على انها تلميذة نجيبة.

- لا تقولي باني معتدة بنفسي.

قالت الفي لنكولينا مؤنبة:

- اعرف ما هي عاطفة الحب الحزين وكيف يأتي بمفاجآت غير منتظرة واعرف أيضاً العذاب الذي يسببه.

- انك تحملين خاتماً من الزمرد يا سنيورا وتوقفت بزواجك الرائع من سيد الجزيرة ولكنك لا تعرفين طباع الرجال الايطاليين. انهم ماهرون في اجتذاب الفتاة واكثر مهارة في التخلي عنها عندما تتورط في مشكلة ما.

نهضت نكولينا واقفة ورأت إلفي ان لها ساقين كساقي الحورية. ربما كانت كثيرة الجمال. عيناها منتفضتان الآن وفمها كئيب وتبدل فرحها بالحياة الى مرارة. اخذت طفلها من ذراعي إلفي وتطلعت اليها وقالت:

- اظن ان سيد الجزيرة الوسيم يحب الكثير كي يحصل على ولد مثل ولدي واتساءل اذا كانت تستطيع فتاة شاحبة وناعمة مثلك ان تعطيه ابناً. هل تعرفين انه كان يحب واحدة اخرى؟ اتى بها الى هذه الجزيرة في مثل هذا الشهر من السنة الماضية. . كنت في روما اذ ذاك وقيل لي انها كانت تشبه كونتيسة كزهرة الكاميليا ولكنها تزوجت من شخص آخر لأنها كانت مخطوبة له منذ صغرها ولا يمكن فك الخطوبات. . . ويقولون هنا في

الجزيرة ان قلب السيد الاكبر تحطم.

تبع هذا الكلام جوّ من التوتر وشعرت إلفي عما يشبه ضربة دفعتها الى السير. وبالرغم من انها كانت تتوقع شيئاً من هذا النوع الا ان ما كشفت عنه الفتاة اصابها كصدمة. هذه الاقاويل تسمعها نكولينا من افواه الناس الذين يتوافدون على مقهى والدها. فاذا كان مرادها ان تهز إلفي فقد نجحت او ان تؤلمها فقد فازت حين رأت شحوب وجه إلفي التي قالت:

- ولدك جميل جداً. اعتني به ولا تكوني تعبسة. انت كثيرة الجمال وسيأتي الحب الى قلبك ثانية.

ثم خرجت وانضمت الى روداري في حديقة المقهى حيث كانوا يشرحون له فن شواء سمك البلم على نار الفحم. انه لفن رائع حقاً وله طقوسه الخاصة به. وتظاهرت إلفي بانها مهتمة جد الاهتمام واكثر من اللازم بينما افكارها بعيدة عن الطعام وعن الشهية لم تكن تفكر الا في كونتيسة الكاميليا الجميلة التي احبها روداري واعجب بها. ويعرف الجميع ان إلفي لم تكن سوى بديلة عنها. . . اختارها على الهامش. وهذا الكل يتكلم معها كأنها امرأة عادية وغير لبقة. فقد رأوا المرأة الاخرى في حياة سيدهم، رأوها جميلة واكيدة من نفسها ورأوها تذهب مجبرة على الزواج من رجل اختاروه لها قبل ان تلتقي بروداري.

عادات تقليدية قاسية من عصر فكتوريا تقوم على تنظيم زواج بين اثنين بدون استشارتهما، وهذا ما يجري بعد في الطبقة الايطالية العليا وهو دمج الدم الازرق او الارستوقراطي بالمال وكثيراً ما ينتج عنه تزويج فتاة يانعة الى رجل اكبر منها سناً. مما جعل روداري يكره هذه التقاليد، عندما رأى ان الفتاة التي احبها خضعت للزواج من رجل يكبرها بكثير وشعر بمرارة كبيرة فدفع به الامر الى ان ينتقم لنفسه ويتزوج من فتاة تصغره بكثير وفقيرة. . .

التفت اليها بينما كان سيزار يقدم لها الطعام:

- هل نجح حديثك مع الفتاة؟

- تكلمنا، ولكن لا ادري اذا حقاً استفادت مني ام لا، ومن الصعب التخفيف من آلام انسان يتعذب بسبب حب كبير لشخص آخر.

سألها ساخراً:

- هل يمكن ان يصل الحب الى هذه الدرجة؟

نظرت الى صحنها وتظاهرت بانها لم تسمعه. وبالرغم من منظر السمك الشهي كانت تبتلعه بغصة. يجب ان تخفي عن روداري ما اطلعتها الفتاة عليه. ايوجد شيء أجمل من تشبيه المرأة بالكاميليا؟

- في المرة الأخيرة اكلت كالذئب الجائع. هل جعلك حديثك مع تلك الفتاة الحمقاء تعيسة؟

اجابت وهو يمسك بذقنها بين اصابعه:

- انهم الرجال الذين يدفعون بالفتيات الى ارتكاب الحماقة، وبعد ذلك يتجاهلون كل شيء ويديرون ظهورهم من غير ان يتعرضوا لأي مسؤولية.

- يعني هذا اننا نرتكب الخطأ ولا ندفع ثمنه؟

- نعم. ارتكاب الخطيئة اسهل على الرجل من المرأة.

- هل تتمنين ان تكون الامور اسهل بالنسبة الى المرأة؟

- كلا بالطبع. ولكن لماذا يقسو الناس على فتاة وقعت في الخطأ؟ لا ترتكب اي فتاة خطأ كهذا بدون مشاركة الرجل لها وهو ينجو ولا يرذله انسان آخذاً سبيله بدون ان يلتفت الى الوراء بل ويتجه نحو فريسة اخرى تاركاً وراءه فتاة مسكينة لتربي طفله ويتملكها اليأس وهي تتحدى الناس نفهماً. اني اتحسر لوضع نكولينا. ولو كانت اقل جمالاً لتركها ذلك الوحش وشأنها.

- قد لا تتركه هي وشأنه. هل فكرت في ذلك؟

- الرجل هو الذي يطارد الفتاة في معظم الاحيان.

- ما زلت بعيدة عن واقع الحياة. ولانك لا تلاحقين اي رجل انت بنفسك ترين ان اية فتاة اخرى لا تفعل الشيء نفسه. ولكن هناك فتيات كثيرات يطاردن الرجال ويسببن مشاكل لهم. ومن يلوم رجلاً يقع في مأزق كهذا؟

نظرت إلفي في عينيه مباشرة وقالت:

- انك تتظاهر بالشك في الدوافع الانسانية لانك لا تعتقد باطناً بما تقوله ظاهراً، وانا اعرف هذا يا روداري والا لما كنت اجالس رجلاً انانياً. انت مترفع ومتقد ولا تلين في بعض الأمور ولكنك لست رجلاً يعيش لنفسه فقط.

- شكراً.

قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة جذابة، ثم اضاف قائلاً:

- لم اعرف انك تزوجتني لفضائل. هل اكيدة انت من وجودها فيّ ام انك تركضين وراء احلام رومانطيقية؟

- الممرضات لسن رومانطيقيات. انهن يتألمن كثيراً.

- اذن ما الذي جعلك تتزوجيني؟

- لأني... تعلقت بك.

- تعلقت فقط؟

مرّ بنظره على جلدها الاشقر فاحمرّت تأثراً ولما تحوّل لون وجنتيها الى الزهري زادت عيناه تألقاً وبدا فيهما بريق الامتلاك. فهي له ويستطيع ان يضايقها بممازحاته او يسعدها او يتعسها. وقد وجد متعة فائقة في قدرته على اثارة حبها له. انها له وحده وها هو يشعرها بذلك.

ولتغطي عجزها عن النظر الى عينيه المتسلطتين تابعت حركة عصفور في طيرانه بين النباتات والاشجار. وفي تلك اللحظة لمحت حركة فستان فوق الصخور فداخلها هاجس مما سيحدث.

كانت نكولينا مرتدية ثوباً ازرق. اذن هي الواقفة هناك تحملق في ماء البحيرة يائسة من الحياة.

- روداري، هذه الفتاة تنوي ان تقذف بنفسها في الماء!

انتصبت إلفي واقفة واندفعت كالسهم بين الاشجار في طريقها الى قمة الصخور، ولكن زوجها سبقها الى هناك ورآته يتعارك مع الفتاة على طرف الصخر. وفجأة انهارت الارض من تحت اقدامها ورأت زوجها والفتاة نكولينا والرعب يملأ عينيها يغوصان متدحرجين على منحدر الصخر ويختفيان عن النظر. صرخت إلفي صرخة مدوية وتجمدت في مكانها ثم انطلقت بعنف الى حيث كانا يتعاركان غير مبالية باي انهيار ارضي آخر تحت قدميها.

لكن معجزة ما حدثت. فقد رأته يسبح في الماء ممسكاً الفتاة بكتفيها وهو يسحبها الى الشاطىء، وكان شعرها الطويل متدلياً ووجهها بادياً عليه الاغماء.

- شكراً لله!

تنفست إلفي الصعداء وتحسست الاعشاب وجذورها التي اقتلعت بسبب انهيار الارض. ولو ارتطم رأس روداري بالصخر لغرق هو والفتاة معاً.

بقيت نكولينا فاقدة الوعي بضع ساعات وكانت في اطرافها بعض الجروح. اعتنت بها إلفي واهتمت بطفلها نيكولا.

مضت اربعة ايام وهي تقوم على عنايتها وفيما كانت إلفي ترتب غرفتها في غياب نكولينا في الحديقة وجدت رسالة وجيزة تحت الوسادة مطبوعة على الآلة الكاتبة ومثنية عدة ثنيات مما يدل على تكرار قراءتها وفي آخرها حرف (ر) كبير.

لم تشأ ان تقرأ الرسالة في أول الأمر ولكن بعض الكلمات التي رأتها صدفة استوقفت انتباهها. قالت الرسالة:

« لا نستطيع ان نتقابل بعد الآن. وكل ما حصل بيننا انتهى وامنت لك في المصرف مبلغاً من المال يكفيك مدة طويلة. وجدت تسلية وتعزية بقربك عندما احتجت لشخص ما في اتعس ايام حياتي. وهذا الوداع حتمي، صدقيني. وقلت لك عند أول مرة انه من المستحيل ان نتزوج. واكدت لي انك فهمت وضعي ».

هذه رسالة من رجل يحاول ان يكون لطيفاً. رجل تمتع بعلاقته وها هو يتملص منها. تصورت إلفي الصدمة التي سببها الرجل لهذه الفتاة التي كانت تأمل بطبيعة الحال ان حبيبها سيتحول الى علاقة شرعية في النهاية. ولكنه بدلا من ذلك وضع لها مبلغاً من المال في المصرف وحرر رسالة وداع مطبوعة على الآلة الكاتبة.

طوت الرسالة من جديد ولكن حرف الـ(ر) شغل بالها، وفكّرت في الطفل نيكولا بشعره الاسود المجعّد وبعينيه الكستنائيتين. ورأت في ذاكرتها تلك اللحظات التي عارك فيها زوجها مع الفتاة على حافة الصخر وسمعته يقول شيئاً لها. ما كان هذا الشيء؟ لماذا لم تعد تتذكر؟ ضغطت بأصابعها على صدغيها وحاولت ان تعصر دماغها.

ذهبت كل محاولاتها سدى. فقد انستها مشاهدة انهيار حافة الصخر كل ما قاله روداري للفتاة، ولكنها متأكدة من ان زوجها صرخ كلمات الثقة وتودد وطوقها بذراعيه وهما يهويان الى الماء.

ارتجفت لهذه الفكرة ولكنها استجمعت رباطة جأشها واخذت ترتب الأسرّة. ومن الجنون ان تعتقد بان روداري كان عشيق الفتاة وانه والد طفلها، ومع ذلك فان حرف الـ(ر) يتطابق مع أول حرف من اسمه وخاطر بحياته لينقذ نكولينا. وعلاوة على ذلك فانه ثري وفي امكانه تعيين مبلغ محترم من المال ليؤمن حياة الفتاة وليريح ضميره.

وفجأة شعرت بحرارة في الغرفة لا تطاق واشتمت رائحة عطر عابقة لا تستعملها هذه الفتاة الايطالية. والفي التي كان عقلها يغلي بمختلف الاسئلة اعتقدت ان صورة العذراء الموجودة في كوة في الحائط تنظر اليها بحزن عميق. خرجت من غرفة نكولينا واغلقت الباب وراءها باحكام وارادت ان تعيد الهواء الى رئتيها وان تبتعد عن هذا المقهى حيث تلذذت بفطور شهي منذ بضعة ايام فقط وحيث يلتقي العشاق ليشتركوا في الطعام وتتشابك ايديهم ويخططون للمستقبل أو... يفترقون.

لكن إلفي تراجعت فالممرضة لا تفرّ من الواجب، بل تتصرف بتعقل وهدوء وتنتبه قبل أن تتسرع في استنتاجات غير قائمة على أساس متين.

لا بد من وجود توضيح بسيط لهذه المشكلة. عديدون هم الرجال الذين تبدأ اسماؤهم بحرف (ر)، او يعيشون في روما. واذا عادت نكولينا من روما بطفل بين ذراعيها وثياب كثيرة من نوع مميّز لا يعني هذا ان روداري فورتوناتو هو الذي وهبها الطفل والثياب معاً.

في خلال السنة المنصرمة كان روداري يلتقي بامرأة من علية القوم وجميلة ولم يسمح له الوقت بالانشغال في مغازلة نكولينا في الوقت ذاته.

ولكن تذكري، قال لها صوت الشك، كان في تلك السنة عندما تخلت عنه الفتاة التي كان يحبها لتتزوج من غيره، فوجد نفسه مجروحاً يواجه الحقيقة المرة واراد ان يؤاسي آلام قلبه فالتقى بالفتاة التي هربت الى روما والتي يكون قد لاحظها في زياراته والتي قبلت ملاطفته وهداياه.

قالت الفتاة ان المرأة الاخرى كانت كالكاميليا. وهذا الوصف لا يخرج الا من فم كاتب لا من فم نكولينا التي تعجز عن التفكير فيه وحدها.

ـ آه...

صرخت إلفي عندما اطبق عليها ذراعان قويان.

ـ لقد اهملتني في المدة الاخيرة يا عزيزتي، وها انا هنا لاشتكي.

تدرب الممرضة على عدم الاستسلام للفزع ولكنها تندفع بافكار جنونية مثل إلفي الآن التي حاولت جهدها لتتخلص من عناقه مع انها كانت حبذته لو حصل قبل ساعة. وشعرت بفتور بارد وهو يلمسها وبينما كانت الشمس مشرقة في كبد السماء كانت غيوم الشك تلبد نهارها.

- انا تعبة. ارجوك ان تتركني.

لم يتوان لحظة في الابتعاد عنها وهو يقول:

- لقد ازعجتك الايام القليلة الماضية وافسدت علينا شهر العسل. . . انا آسف لذلك خاصة اني تسلّمت لتوّي برقية من روما تدعوني للرجوع الى هناك للتشاور مع منتج فيلم «الحصرم» سنرحل غداً.

فوجئت بهذا الخبر ولكنها صمتت يائسة. ليتها تجسر ان تسأله اذا كان الطفل نيكولا ابنه. ولكن حبها له لا يسمح لها بتوجيه سؤال كهذا. وعوضاً عن ذلك قالت وهي تشعر بالفرح بقرب ابتعادها عن الجزيرة:

- اذن لنرجع الى الفيلا حالاً ونوضب ثيابنا.

- دلفينا ستقوم بالتوضيب، اما انا فقد حجزت مكانين في طائرة ستقلع باكراً.

اومأت برأسها ولكنها رات نظرة غريبة في عينيه وهو يقول:

- استمتعنا بوقتنا هنا وسنكمل شهر العسل في روما. ولن اكون كثير الانشغال هناك الا ان هذا الفيلم يهمني كثيراً واحب ان اتابعه عن كثب. انك تعرفين ان اقامتنا هي روما في الأخير. وصحيح ان الجزيرة جذابة غير انها تجلب لي ذكريات تحتم شمسي. واتيت بك الى هنا لتعتادي على طرق الحياة معي في بيئة تختلف عن بيئة المجتمع هناك. اما الآن وقد اصبحت تعرفينني فستكونين اكثر استرخاء في روما.

- هل افهم من كلامك يا روداري انني لن ارتكب حماقات ولن احمرّ وجلاً عندما ينظر الينا الناس ويتساءلون كيف تزوجت من فأرة خجولة وغير منمقة كنساء مجتمعك؟

- يا طفلتي العزيزة، لست فأرة. فبعد ان يهتمّ بثيابك مصمم الازياء وبشعرك المزين المختص ستذهلين الناس بطرقك المحتشمة. وتأكدي من ان اصدقائي لن يشفقوا عليّ لهذا الزواج.

- اذا كان مرادك ان تغير فيّ بعض الاشياء، لماذا تزوجتني اذن؟

خرجت هذه الكلمات من فمها بصورة عفوية. لماذا لم يتركها وشأنها تهتمّ بمهنة التمريض بدل ان يلاحقها؟ الانها ليست من علية القوم ولا تذكره بالمرأة التي احبها؟

- بالتأكيد تعرفين الآن لماذا تزوجتك.

- كلا يا روداري.

رفع احد حاجبيه ونظر اليها نظرة جلبت اللون الى وجهها:

- التقينا صدفة ومنذ الوهلة الاولى وجدت فيك شيئاً غير واضح اسرني واردت ان اتمكن منه. وجدتك تختلفين عن الفتيات الاخريات اللواتي عرفتهن في حياتي.

- ما تقوله صيغة مبتذلة والكتاب ماهرون في استعمال مثل هذه العبارات.

- انك تتحسسين طريقاً لمعرفة حقيقة قد تؤلم.

- حاول يا روداري. ستجدني اكثر تحملاً مما تتصور.

التقت العينان بالعينين وشعرت ان خليطاً من الاحساسات يمزق قلبها. هل هو موقف ضعف ام موقف معرفتها ان شيئاً في العالم لا يستطيع قتل حبها لهذا الرجل الغريب عن طبيعتها في كل شيء؟ مع انه طالب بحبها له ومنح حبه لغيرها. هل اكتشف انها تعرف ذلك من عينيها الرماديتين؟ هزّ كتفيه وقال على سبيل الحديث:

- مثل شرقي يقول: «ضوء السراج افضل من التعثر في الظلام».

ها قد طلبت معرفة الحقيقة وقبلتها، فقلبه مشتعل بأخرى، اما هي فستنير حياته بسراج فقط. . . ولكن في الظلام الدامس. لقد عاش قلبه في الظلام أيام كان في الفندق في جبال الالب وبصيص من النور يكفي لان يعرف الانسان طريقه. اراد روداري ان يدله شخص ما على طريق بيته وهو في عجلة من امره ليبتعد عن الجزيرة ويعود الى روما. . . وتعرف إلفي السبب المؤلم لهذا القرار بعدما اكد لها انهما سيمكثان هنا مدة شهرين، وها هو فجأة ينهي شهر العسل ويأخذها من الجزيرة بسرعة لا تخلو من الشكوك.

وضع ذراعه حول خصرها وابتعد بها عن المقهى كأنه يقصد ذلك. لم تنظر الى الوراء ولكنها لا تشك في ان نكولينا تراقبهما وهما يبتعدان. كان

الوقت متأخراً واخذت الشمس تغيب وتلوّنت الاجواء بالوانها الارجوانية والذهبية. وبدأ الهواء يشتد حرارة ورطوبة ومياه البحيرة تعكس لمعانها المعدني الممزوج بانعكاسات شعاع الشمس في مغيبها.

توقف روداري عند قمة التل وتأملا مغيب الشمس وانصتا الى قرع الاجراس. حاولت الا تنظر اليه ولكنها لم تصمد. رأت في عينيه وهج السماء وتميزت ملامحه كملامح التمثال المنحوت.

- نظرة الى السماء تدلنا على ان الجو ماطر... وربما عاصف.

العاصفة، اذا اتت، تكون في محلها هذه الليلة. ولمع البرق وهي ترتدي فستانها لآخر عشاء يتناولانه في الفيلا. أجفلت وشحب لونها كلون الشبح وهي في فستان حرير شفاف موشح بالفضة. ورفعت ذراعها لتمسك سبحة اللؤلؤ خوفاً من سقوطها عن عنقها... هل ستستعيد ثقتها في روداري وايمانها به وآمالها فيه؟ برقت السماء مرة اخرى وسمعت قطرات المطر على اوراق النباتات في شرفتها. وتحوّلت رطوبة الجو الى برد قارس، ام هو برد قلبها الذي جعلها ترتجف؟ اخرجت دثاراً من الحقيبة التي كانت قد وضبتها دلفينا، كانت اشترته لنفسها قبل زواجها لتلبسه في سهرات تكون فيها خارج الوظيفة ولبسته وتدلت شراريبه حول خصرها وبانت السبحة من تحته تذكرها باول يوم لها في الفيلا عندما افاقت من نومها وفتحت عينيها على شمس سطع نورها على السرير العريض ووجدت نفسها وحدها... بلا عريسها الذي يجب ان يسبح في بحيرة صباه المسكونة بالاشباح. وعندما سمعته يفتح الباب اغمضت عينيها وتظاهرت بالنوم. اقترب منها ووضع يده الباردة على عنقها وفطنت الى سهولة قتل اي امرأة بهذه الطريقة. وظناً منه انها ما زالت غافية وضع السبحة التي كانت قد سقطت على الصخور حول عنقها واحست ببرودتها وبحبيبات الرمل الملتصقة بحباتها. ثم تركها بعد ان مرّ بيده على شعرها.

مرت هذه الذكرى في ذهنها وتساءلت عمّا كان يفكر فيه ذاك الصباح. هل وجدها اكثر جمالاً من امرأة اخرى قارنها بها؟ وهل اشتهى والاسى في قلبه ان تشاركه العيش في وحدة وجمال الفيلا؟

وجدت إلفي نفسها تنزل السلم وهي بعد غارقة في افكارها ورأت نفسها في مرآة مقابلة تغطي تقريباً معظم واجهة الجدار. بدا لها ان المرآة

تستدرجها نحوها وتعكس صورتها من شعرها الكستنائي الذهبي الى كعب حذائها، وتعطيها مظهراً اعريقياً، وكأنها تأكدت من لون عينيها الرماديتين لأول مرة فحدقت فيها كمن يحدق في عيني امرأة غريبة ورأت ان للغريبة جمالاً خلاباً.

ورأت ظلاً في المرآة وراءها. كان هذا روداري لابساً طقماً داكن اللون وربطة عنق من الحرير.

ظلا هكذا معاً مدة طويلة في المرآة ولكنهما انفصلا عندما استدارت والتفتت اليه.

- تبدين رائعة. ولكن هل انت حزينة لان هذه ليلتنا الاخيرة في الفيلا؟

- انه مكان مفرح حقاً.

ولم تستطع اضافة كلمة عن سبب كآبتها.

- ولن تكون لنا في وقت قريب، فقد اتخذت قراراً بصدد الفيلا فورتوناتو. اذ يحتاج اهل الجزيرة الى بيت للاستجمام حيث يستريح المسنون ويتلقون العناية اللازمة. لا تأتي جدتي الى هنا ابداً وعلبى مشغولة في روما باعمالها الاجتماعية منذ ان قتل زوجها الشاب وستخرج الفيلا غداً من ملكيتنا، لذا قمت بجميع الترتيبات لنقلها الى السلطات المحلية وسيؤمن المال الكافي لادارتها ودفع رواتب المستخدمين.

- روداري... ما اروع العمل الذي تقوم به.

ولاول مرة احست بشوق لتطوقه بذراعيهاوتقبل وجنته السمراء.

- لنسمّ ذلك هدية للممرضة الشابة التي تزوجتها.

- هذا كرم عظيم منك.

تكلمت بصوت فيه شيء من البحة ودمعة في عينيها. اياً كانت دوافعه في التصرّف بالفيلا فان ما قام به كان عملاً مشرفاً وجديراً بالذكرى.

تكوّن عشاؤهما من طير السماني المشوي ومن فاكهة الدراقن المقطوفة رأساً من الحديقة. ولم يزعجهما البرق بعدما اسدلت ستائر المخمل الثقيلة.

- اني استغرب هبوب العاصفة هذا المساء.

كان روداري يمشي في الغرفة ذهاباً واياباً بحركة خفيفة كحركة هرّ يبحث عن فريسة يصطادها، بينما كانت إلفي جالسة في كرسي مجوّف تتألق جمالاً بحجر الياقوت على صدرها وبحجر آخر في اصبع يدها اليسرى. ولم

يزعج هدوءها الا قصف الرعد فوق ابراج الفيلا ونظرات زوجها التي كانت تحاول ان تتجنبها كلما ركز عينيه عليها. وكي تفعل ذلك حاولت التلهي بالنظر الى المصابيح المعلقة او الى وهج نار الحطب في الموقد. وعادت تشعر بالوحدة كما شعرت في ليلة زفافها الاولى.

- خرافة في عائلتنا تقول انه عندما تترصد مشكلات ما باحد افرادها تهب العاصفة.

اتكأ روداري على حجر الرخام الاسود الذي يشبه لونه لون عينيه وتابع يقول:

- تولاني هاجس طيلة النهار ويبدو لي انه اخذ يتحسم هذا المساء... واراه يحوم بيننا. بدأت اشعر بالندم لأني اتيت بك الى هنا. كان في امكاننا ايجاد مكان آخر نكون فيه وحدنا.

- لماذا تكره الجزيرة؟

ربما تسرعت في القاء السؤال اذ حدق فيها قبل ان يجيب:

- نلتقي دائماً بوجوه واماكن تفتننا وتحتفظ بنا ضد رغباتنا... تماماً كما احتفظ بك يا عزيزتي.

اتسعت حدقتا عينيها مصدومة بما قاله عن وعي منه ولاحظت شفتيه تنفرجان عن ابتسامة لا هي بالحلوة ولا هي بالقاسية ولا تستطيع تحديدها كما تعجز عن تحديده هو، وفي تلك اللحظة بالذات ارعدت السماء بشدة اهتز معها سطح الفيلا. كانت العاصفة تطوقهما وحدهما... مع كل ما بينهما من تقارب وتباعد وغموض. وفجأة رمى بسيكارة في النار وقال:

- يخال لي اننا سننام مبكرين يا إلفي.

قال ذلك متقصداً وبرقت عيناها تساؤلاً عندما تطلعت في وجهه الذي رغم ما يخفي من اسرار ما زال يدفع بقلبها الى التسارع في خفقانه. وفهمت ما يعني بحاجبيه الاسودين المنسجمين مع تصميم عينيه وشكل انفه الروماني وعزم شفتيه.

- اصعدي الى غرفتك وساضع الحاجز المشبك امام المدفأة وساطفىء الانوار.

تركته بدون ان تنبس بكلمة واحدة واخذت تصعد السلم راكضة، وعند منتصفه انزلق دثارها عن كتفها وسقط على السلم. لم تلتقطه بل

تابعت جريها حتى دخلت غرفة نومها. اغلقت الباب بعنف واخذت تنظر الى المفتاح في قفل الباب. لا ترغب مطلقاً في ان يمسها هذه الليلة فلم تعد تستطيع تحمله بعدما قرأت الرسالة في غرفة نوم نكولينا. وبحركة ذاتية مدّت يدها الى المفتاح وادارته بكل بساطة ولكن بتخوف ثم اسرعت واقفلت الباب المؤدي الى غرفته الخاصة وبذلك تكون قد سدت في وجهه المنفذين الى غرفتها، ويوجد ديوان في غرفته يمكنه ان ينام عليه وحده محروماً من قرب الزوجة التي لا يحبها!

سارت إلفي كالشبح نحو سرير العرس - كما تسميه دلفينا - هذا السرير الخشبي المحفور ذي الستائر والاغطية الزرقاء. نظرت اليه وقالت في نفسها:

- ستنهمر دموعي غزيرة لو بكيت.

وفيما كان وميض البرق يضيء الغرفة رأت مقبض الباب يدور يساراً ثم يميناً. ورافق ذلك قصف الرعد ثم تبعه سكون وصوت زوجها يضحك. فلو اقتحم الباب ستصيبها صدمة كبيرة.

انه لا يحبها ولذا من السهل عليه ان يدير ظهره لها ويضحك منها. ولكنها ذعرت عندما رأت باب الشرفة ينفتح على مصراعيه وروداري واقفاً فيه يضيء شبحه وميض البرق كلما لمع. كان شعره مبللاً ووجهه مقنعاً بالقسوة الظاهرة.

- لا تعرفين هذا البيت بعد. توجد تحت غرفتك شجرة ماغنوليا عالية تصل حتى شرفتك. قد لا اكون روميو لكني استطيع ان اتسلقها.

- انا... انا لا اريدك هنا (قالت شاهقة من الخوف) الا يمكنك ان تتركني وشأني؟

- لو طلبت مني ذلك يا عزيزتي، او لو افهمتني بانك تشعرين بالتعب بعد الاعتناء بنكولينا لكنت قدرت ذلك. اما ان توصدي الابواب في وجهي فهذا شيء لا اتساهل فيه.

- لن أتحملك!

عبس ولم يترك لها المجال لتفلت منه اذ اسرع نحوها وامسكها بقوة وشدّ شعرها فالتصق رأسها بكتفه.

- لماذا هربت مني؟ ماذا عملت لك حتى تسلكي هكذا؟

- اردت ان اكون وحدي . . .

- في آخر ليلة لنا على الجزيرة؟ (ابتسم قليلا ثم اردف) هل انزعجت لأني اخبرتك اننا ذاهبان الى روما؟ هل تظنين اني افضل عملي على زوجتي؟

- انا فقط متعبة.

حاولت ان تدير رأسها فكان ان اصبح خدها ملتصقاً بقلبه. زوجته . . ملكه . يأخذها حين يشاء . وهمس يقول:

- يا حلوتي الحمقاء . هل انت اقل انزعاجاً مني الآن؟ ام انت منزعجة من نفسك لأنك نسيت ان تقفلي باب الشرفة؟

ثم حملها كأنها هرة صغيرة ومشى بها نحو السرير . كانت عيناه تشعان في ضوء المصباح وقد سيطرتا عليها وفقدت كل مقاومة بين ذراعيه رغم محاولتها ان تتملص منه.

- روداري . . . لا . . . ارجوك.

- صمصمي على شيء ما يا عزيزتي.

مرّ باصابعه على شرايين عنقها واضاف:

- تشبهين عذارى فستا عند الرومان اللواتي يقمن على حراسة الشعلة الدائمة.

وبعد ان نظر في عينيها الرماديتين متلهياً قال:

- هل معاملتي لك سيئة الى هذا الحد؟

كانت تحت رحمته ولما انشغل بفك ربطة عنقه انسلت من السرير بسرعة وجرت نحو الباب ناسية انها هي التي اقفلته . ضحك عندما استدارت وسخر منها عندما حملها وقذف بها على السرير بشراسة هذه المرة . . .

. . . واخيراً نامت ورأت حلماً يشبه الكابوس . كان اعلى الصخرة يهار وسمعت فتاة تصرخ وتنادي اسماً لم تفهمه . . كان حلماً اقلقها كثيراً واتعب جسمها.

- ابقي هادئة . . لا تتحركي .

اخذت يداه تربتان شعرها المسدل . ادارت هاتان اليدان الوسادة وارتاحت إلفي لرطوبة الوجه الآخر للوسادة رشتها بمعاملة لطيفة بعد لطمة . بكت وبللت الدمعة شفتيها . وفي ليلتها الاخيرة على الجزيرة شعرت باليأس وبالحرمان من لذة الحياة.

٤ - راقصة في الحديقة . . . وغراب

ظلت إلفي صامتة معظم الرحلة حتى المطار وفي سيارة التاكسي الى ان وصلا البيت . وكل ما كانت تعمله هو التطلع بعينين واسعتين الى كل شيء . بينما كان فكرها منشغلاً بواقع حياتها في روما حيث ستكون وجهاً جديداً بين الناس ، غريبة عنهم.

هل ستتاح لها الفرصة لتتعرف الى الرجل الذي تزوجته معرفة تامة ؟ وهل ستكيف مع نمط مجتمعه وتنجح في نسيان سر غامض تركته وراءها على الجزيرة؟ كل ما تستطيع عمله الآن ان تنتظر آملة أن يكلمها ذات يوم فيرو شكوكها أو يبددها.

في هذا الوقت وصلا الى روما التي يجتازها نهر التيبر القديم . . . العارف بالأمور وكاشفها . كانت الشمس تسطع بشعاعها اللطيف على شوارعها الضيقة وعلى قرميد سقوفها ، وبيوت عصر النهضة رغم جمالها تبدو بالية بجانب المباني العصرية المتعددة الشقق وترى قصوراً قديمة تتوسطها رواقات يلعب فيها الأولاد ويتراكضون ويتصارخون تحت حبال الغسيل . كانت الشوارع تعج بالدراجات النارية المنخفضة المعروفة بالسكوتر وبالسيارات الصغيرة . وبالرغم من ضوضاء الحياة العصرية يشعر المرء بوجود هالة من الرومانطيقية.

هذه روما التلال السبعة بمرحها ونفوذها وعشقها اللاتيني . اجتازا وسط روما بجلبته وصخبه ودخلا منطقة سكنية اكثر هدوءاً ، حيث توقفا عند بوابة مقنطرة لمدخل حديقة ، حيث تبرق الشمس على تمثال اسد مذهب وحيث الظل والنور يتقاطعان وأوراق الشجر وأزهارها تتراقص .

التاريخ هنا صارخ في الحجارة ، وعندما ترجلت إلفي من السيارة رأت أن القصر مبني على قمة تل وتحته يقع ميدان المدرج الروماني ، وترى عن بعد سطوح البيوت المسقوفة بألواح من النحاس .

أتى روداري الى جانبها وأمسكها من مرفقها وقال هامساً :

ـ آه ، روما . لا يكفيها العمر كله . . .

ردت عليه بابتسامة خفيفة وأخفت توتر اعصابها بالتظاهر بالهدوء .

دخلا ذلك الجزء من القصر حيث توجد شقته واستعملا مصعداً كهربائياً .

تتكون شقته من الطابق العلوي برمته وكل غرفة فيها جددت بالطابع العصري . فتح لهما باب الشقة رجل قصير القامة رشيق ذو شاربين دقيقين وعينين لطيفتين يدعى املكار . قال بعد أن تناول الحقائب من روداري ومعطف الفرو من إلفي :

ـ اهلا بالسنيورا . أهلاً بالسنيور .

أحست بقبضة روداري على كتفيها سائلاً اياها رأيها في بيتها الجديد .

ـ انه ظريف جداً وأنيق . . . هل استطيع ان اشاهد المنظر من الشرفة ؟

ـ لك ما تريدين ومتى تشائين لكن انتظري حتى الغسق .

ـ تقول اني استطيع مشاهدة ذلك وأراك ممسكاً بي لئلا افعل .

ـ لأن روما تشبه جميلة تتقدم في السن وتبدو أجمل في حلاها وفروها الثمين . فهي لم تعد فتاة شابة تبهر العين بجمالها . اني احب روما وأريدك أن تشاهديها وهي في نور ناعم وظل هادىء . انها كالبندقية وفلورنسا تخط التجاعيد وجهها ولكن روحها لا عمر لها .

ـ من المستحيل تطبيق هذا القول على لندن .

ـ كلا ، لأن لندن كلها زوايا بينما روما كلها دوائر .

ـ الا يكف ابداً الرجال الايطاليون عن التفكير بالنساء ؟

ـ ربما عندما ينامون .

ضحكت ضحكات متقطعة وسألته :

ـ روداري . . . كم عدد النساء اللواتي عرفتهن ؟

لأول مرة تتجرأ على توجيه سؤال أقرب ما يكون لارضاء فضولها . واتخذت موقف دفاع فيما لو هاجمها باي شكل من الأشكال . لكنه مرّ بأطراف اصابعه على جسمها حتى خصرها وأحست بنار تكويها ثم تركها .

ـ قلما يوجد رجل وصل الى عمري هذا ولم يقم علاقات مع النساء . تناسيهن وتذكري فقط اني تزوجتك .

صعقت بجوابه الوقح ، ولكنها اضافت :

ـ ولكن لماذا ؟

ـ لطالما تصرين قد يغريني الحاحك هذا على الاجابة في هذه اللحظة بالذات وقبل أن نشرب القهوة . . . شكراً يا أملكار . نعم ، اترك الصينية هناك والسيدة ستهتم بي .

عبس وهو يتكلم وخلعت إلفي قفازيها الطويلين وحاولت التغلب على وجلها . قالت :

ـ شكراً يا املكار . يبدو هذا البسكويت لذيذاً .

انحنى لها وانسحب وأغلق الباب . انهما حديثا الزواج ويفضلان البقاء وحدهما . جلسا ليشربا القهوة وسحبت إلفي رجليها من حذائها بدون أن تجعله يشعر بذلك . صحيح ان هذا النوع من الأحذية يلائم ثوبها لكنها تفضل عليه استعمال الأحذية التي تلبسها في عملها التمريضي . رأت نظرة روداري الى ساقيها وقدميها وتوجست خيفة من رغبة هذا الأسمر الروماني فيها وهو يجالسها يرتشف القهوة فقد ورث هذا الرجل الذي تجاسرت على الزواج منه غطرسة روما القديمة عندما كان الغزاة الشباب يعتبرون للمرأة حقاً من حقوقهم . فقد طالعت تاريخ روما وعرفت منه ان الفتاة التي يتخذها القائد تقع في حبه في نهاية الأمر . . . هذا هو الضعف الأنثوي .

ـ اني اتساءل . . . ماذا تتوقعين مني ؟

اشعل سيكاراً بعد القهوة وأخذ يدرسها من خلال الدخان . ثم قال :

ـ هل أنت فارسة تبحثين عن الوردة والكأس الخرافية ؟

ـ لست سوى فتاة واقعية تزوجت من روماني وأعرف ذلك . وبعد هذه الأيام معك يا روداري ، أصبحت أعي واقع الحياة اكثر من ذي قبل ، وأرى ان الأزهار تنمو وتزدهر .

ـ هذه ملاحظة قيمة لأني عن عروس شابة . كنت اتساءل كيف يكون الأمر اذا امتلكت امرأة امتلاكاً كاملاً وكرست كل وجودي لها . هل يفقد كل شيء قيمته ، عداي ، بالنسبة اليها ، لا نظراتها ولا ملبسها أو بيتها ولا حتى طفلها .

ـ انت روماني رجعي .

ـ يجب أن أكون كذلك . عندما غزت الفيالق الرومانية بريطانيا منذ قرون مضت رأيتك هناك . رأيتك واقفة بين السنابل الذهبية وكان شعرك باللون نفسه وعندها امتلكتك .

ـ بكلامك هذا تريد أن تقول اني لم انج منك حينذاك وما حصل عندئذ علاقة فحصل ثانية ؟ وانه حتى اذا هربت منك في الفندق ستلحق بي ؟

ـ طبعاً . هربت مني بين السنابل العالية ولكني أمسكت بك .

اصابتها رعشة خفيفة لأنها تلمّست حقيقة في دمها : انه في حياة غير هذه الحياة رأت هذا الوجه من قبل وأحست بلمساته وقدّر لها أن تحبه . وانخفضت رموش عينيها لتحجب نظراته السليطة بقدر المستطاع . انها امرأة ولا تتمالك نفسها من تفادي سيطرته عليها ، ومع ذلك فانها تشعر بحاجة ماسة الى قليل من العطف والحنان وليس فقط الى تلذذه بشبابها وشقرة جلدها وشعرها . ومتعته في هذه كمتعته في دراقة قطفها من الشجرة . وكما يتخلص من بقايا الدراقة هكذا يلقي بها جانباً عندما يطفىء غليله .

ـ آه ، اني لمسرور جداً بوجودي في روما مرة اخرى .

مد ساقيه الطويلتين وأجال نظره في انحاء الغرفة ، وتصاعد الدخان من بين شفتيه . وتنبهت اعصاب إلفي عندما سرت اصابعه من معصمها على طول ذراعها حتى عنقها . عندئذ قادها وألقاها بجانبه ورأت شعلة النار المتقدة من خلال رموشه . وفجأة حجب كتفاه الغرفة عنها وتألمت من ضغطه عليها . وحاولت بغريزتها أن تقاوم رغم تحول جسمها لكن عظامها ذابت وقلبها قفز من مكانه .

ـ انك وثني أثيم !

ـ لأني اعانقك يا إلفي ؟

ـ لأنك تعاملني كعبلة .

ـ اعاملك كامرأة وكوني سعيدة بذلك . من الرجال من يتزوجون ثم يفقدون الاثارة .

ـ انك لا تهتم بي كانسان .

ـ هذا هراء . احب فيك لطفك وتراهتك . . . انك بريطانية صميمة . احب طريقتك في الاستماع الى الموسيقى خاصة وانت منحنية برأسك الأشقر وأنت تحلمين بعينيك الرماديتين ، وأحب فيك اذنيك الصغيرتين .

ـ لا . . . يا روداري . . . لا . . .

ـ ستبكين اذا توقفت يوماً عن هذا الحب .

وبسهولة كبرى رفعها وخرج بها من غرفة الصالون الصغير وتوجه الى غرفة نومها .

ـ سأغيب عن البيت مدة ساعة . خذي مطلق حريتك وتذكري ان هذا هو بيتك حيث يروق لك أن تفعلي ما تشائين . ارقصي حافية وتسمعي الى الموسيقى وكلي المعكرونة .

أزاحت شعرها عن عينيها وسألته :

ـ هل لي ان اعرف ساعة عودتك الى البيت ؟

اعاد ربطة عنقه الى مكانها وقال :

ـ عند موعد العشاء . فقد وعدت لانشياني بأن اجتمع به لنتكلم في امور تخص بعض الأشغال . في تلك الأثناء تعرّفي على من في القصر ، وستجدين في الطابق السفلي بارونة حمقاء لذيذة ولدينا ايضاً راقصة باليه كانت ترقص أيام قياصرة روسيا . ستلتقين بهما في الحدائق وأنا متأكد من انك ستحبينهما .

ـ ومتى سأتعرف على عائلتك ؟

حدّق فيها وفجأة مالت نظرته الى المظهر الجدي :

ـ ستزورنا هلين عما قريب . اما الكونتيسة فمن الأفضل ان تكون المقابلة معها رسمية نوعاً ما . طبعاً ستقيم حفلة عشاء وستدعونا اليها .

ـ لماذا هذه المقابلات المعقدة ؟ الا تستطيع أن تقدمني اليها فقط ؟

ـ هذا ممكن ، لكنني لست على علاقات طيبة معها لأني قلما أقوم بشيء يعجبها ، وأنت بصورة خاصة سوف لا تعجبينها اكثر من كل ما عملته . ولذلك ارى من الأفضل أن تواجهيها في حضرة غيرنا من الناس فيجبرها ذلك على انتهاج مسلك اجتماعي لائق .

ـ انت تخيفني يا روداري .

ـ نعم . انا اخيفك في كل ما يتعلق بك . لم أقل ابداً انه من السهل تفهمي أو تفهم عائلتي . نحن مترفعون ، متغطرسون واقطاعيون واعتبري حياتك هنا نعمة لأنك لن تعيشي كما عاشت سابينتا تحت سقف واحد مع جدتي .

ـ يبدو ان جدتك مرعبة . هل يتحتم عليّ مقابلتها ؟

ـ نعم .

أخذ ينظر اليها وهو واقف وجعلها قوامه تشعر بضعف وسذاجة . ليست سجينة عنده وفي امكانها رفض مواجهة المرأة التي أشقت حياة امه ، ولكن نظرة قصيرة الى ذقنه التي كلها تصميم وعزم اضعفت من قوة ارادتها . انه تزوجها تحدياً وينوي الاستمتاع بسخط جدته لدى تقديم عروسه لها .

ستجدها عروساً بعكس ما تمنته لحفيدها : نحيلة ، شقراء ، بلا ألقاب ومن مجتمع آخر . ممرضة شابة ليس عندها غير الحب تقدمه له .

انحنى فوقها وأمالِ ذقنها . ثم ضحك وقال :

ـ قد لا اكون فارساً مغواراً يا عزيزتي ، لكني سأكون الى جانبك لأحميك من التنين . تعرف جدتي انها تخيف كل انسان ما عداي .

ـ لا اتصور أن هناك شيئاً يخيفك .

تفحصت إلفي وجهه بكل تفاصيله ورأت انه لم يكن كثير الوسامة بسبب انفه الروماني والتجويفة في أسفل ذقنه لكنها تفضله كذلك ، اذ تزيد هذه الملامح طابع وجهه قوة . وحاولت ان تقنع نفسها بأنه ليس من النوع الغاوي . وثب قلبها له كما يثب كلما تطلعت فيه وفجأة رفعت يديها وجذبت وجهه اليها .

ـ انت فتاة غريبة يا إلفي ولا تعرفين انها طرقك البسيطة الجذابة هي التي دفعتني الى التعلق بك . انا لا استحقك ومع ذلك احتفظ بحقي لأن تكوني لي .

ـ عروس ابليس ؟

ندمت على تسرّعها في قول ذلك . فقد ضغط بقبضته ثم تركها لكنه آلمها .

ـ نعم . مما لا شك فيه ان الناس سيعتقدون ذلك عندما يرونك . سأعود عند المساء . الى اللقاء يا ملاكي الصغير .

تركها وحدها وأغلق الباب بعناية فائقة عندما خرج كأنه يريد أن يؤمن على سجينة . استلقت على السرير وأخذت تلامس خاتم الزمرد الذي تشع منه نار فورتوناتو وسحره . عروس ابليس .قد يصح هذا في اكثر من ناحية واحدة والزمن فقط سيبرهن على مدى صحة ذلك .

نهضت وذهبت الى طاولة الزينة ورأت ان املكار افرغ حقيبتها ورتب كل شيء امام المرآة ، امشاطها وفراشيها وصناديق صغيرة مرصعة والصندوق الموسيقي الذي اشترته في الألب . رفعت غطاءه وتنصتت الى موسيقاه العذبة وهي تسرح شعرها . وتضفي هذه الموسيقى سحراً على سحر الأيام الأولى منذ ان تعرفت على روداري الذي وجدته فوق مرتفعات الجبال أروع من أي رجل آخر .

جدلت شعرها بشكل ذيل حصان صغير وارتدت ثوباً صيفياً ألوانه من زرقة البحر والرماد والصنوبر . كان ثوبها بلا أكمام ولاحظت كدمة صغيرة في ذراعها تحت الكتف فارتعشت . ماذا سيحدث لو اضطرت ان تسأله يوماً عن حقيقة نكولينا ؟ روداري قوي وكغيره من الرجال الأشداء لا يدري انه يؤلمها بقبضة يده وهذا ما يجعلها تتوقع أي شيء منه .

ابتعدت عن المرآة وتجولت في انحاء غرفة نومها والحمام المجاور . كل شيء براق وعصري وكم كان سرورها كبيراً عندما اتت الى مخدع صغير مستدير له شرفة زجاجية وفيه اثاث من الخيزران وأنواع النبات الأخضر . ورأت كتاباً صغيراً على طاولة بين النباتات مجلداً بجلد احمر . انه كتاب اشعار بالايطالية ويقلب نابض فتحته لترى ما اذا كان هناك اسم مدوّن في داخله . وجدت اسماً تحت صورة عصفورين ملتصقين ، رمز العشاق المذهبين .

ـ كاميلا .

ما كادت تلفظ هذا الاسم حتى احست بنسيم عليل يتهامس في الحديقة . اسم حلو كالعطر ، كأوراق الكاميليا عند الغسق . كاميلا . هذا اسم المرأة التي احبها روداري . حتماً كانت في هذا المنزل كما كانت في الجزيرة ورحلت تاركة وراءها تذكرة لا بد لامرأة اخرى من أن تراها . اطبقت إلفي الكتاب بسرعة كمن ينظر داخل غرفة محرّمة واعادته تماماً كما كان على الطاولة . لا تشك في أن روداري غالباً ما يطالع في هذا الكتاب ويطيل النظر في العصفورين المذهبين اللذين لم يعودا ملتصقين الآن .

تمهلت وبحثت عن مخرج من الشرفة فوجدت سلماً حديدياً يؤدي الى الحديقة وبدون أن تبالي بأي خطر هرولت مسرعة ووجدت نفسها في مبنى وسط فناء حديقة والمبنى من الآجر به بعض الأزهار ، وحول الحديقة سور مع برج في كل زاوية منه كان

المكان عزل لتسهل مراقبته . اعتقدت بانها كانت وحدها في المكان عندما فوجئت بامرأة صغيرة الجسم تبحث بعصا عن شيء بين الشجيرات .

ـ آه من هذا الطير اللعين . سيأتي يوم أحطم فيه رأسه !

ـ هل من مساعدة ؟

عرضت إلفي المساعدة من قبيل الفضول ولفت نظرها لباس المرأة الغريب المؤلف من معطف فضفاض مثبت بسلسلة ، وعلى رأسها قبعة سوداء كانت فيها مضى اكثر رونقاً بكثير . التفتت حالاً لترى من المتكلم معها وبدت بنحول العاج الا ان عينيها السوداوين فيهما دلائل النضوج والحكمة . وظهرت خصل شعر أبيض من تحت القبعة وفاح منها مزاج طريف ساحر ملأ خيال إلفي بشتى التصورات .

ـ عندي غراب . ويطيب لهذا اللعين ان يسرق القليل الذي تبقى لي من كنوزي . فانه يفتح الصندوق بمنقاره ، وهو متعلق بصورة خاصة بقلادتي وسلسلتي . وها انا ابحث عنه كما ترين وستكون مصيبتي كبيرة اذا لم اعثر عليه . المصيبة مصيبة قلب ، اتفهمين ؟

تكلمت المرأة الصغيرة الجسم بالانكليزية وكانت لهجتها طريفة الا ان اللكنة ليست إيطالية . وحدقت في إلفي بعينين واسعتين كعيني غراب في يوم صيف حار .

ـ سأساعدك لايجاد قلادتك . أليس من الممكن أن يكون قد طار بها الى شجرة ما ؟

ـ انه طير شرير وقد يقدم على أي عمل !

ـ ارى في شجرة الماغنوليا هذه مخبأ جيداً بأغصانها المتشابكة . كنت احب تسلق الأشجار وأنا صغيرة في واندزويرث .

تسلقت إلفي الشجرة واختفت بين أغصانها وأزهارها المتراصة وأخذت تبحث عن القلادة في شقوق الشجرة وتجويفاتها . وفجأة سمعت شيئاً كرفرفة جناحين قريباً منها ولما التفتت رأت جناحين اسودين وشيئاً يلمع في منقار الطير . وعندما تحركت بسرعة نحوه أجفل منها وسقطت القلادة من منقاره . . .

ـ ها هي على الأرض يا طفلتي .

اندفعت صاحبة القلادة لتلتقطها وهي تصيح كالطائر المذعور

وابتسمت إلفي ورأت نفسها طفلة سعيدة وبلا هموم . كما كانت قبل موت امها المفاجيء . صحيح انها ارادت أن تصادق امرأة ابيها محاولة ارضاءها واتباع النظام الجديد . ولكن لم يقم بينهما أي نوع من الانجذاب . كانت إلفي تحب امها كثيراً ورأت أن تترك منزل والدها في نهاية الأمر وذهبت لتتعلم مهنة التمريض .

لم تندم ابداً لقرارها هذا وأصبحت ممرضة ماهرة وظلت مقتنعة بعملها الى أن دخل روداري حياتها وغيّر نمطها اليومي وحوّله الى نوع من نعيم غريب ومذهل .

نزلت عن الشجرة بهدوء وبسهولة ووقفت قرب هذه المرأة التي عبّرت عن فرحها بوضع القلادة على خدها العاجي المجعّد فبدا باهتاً امام خليط الجواهر البراقة .

ـ فقدان القلادة هو بمثابة فقدان حياتي . هذا كل ما املك ليذكرني بأيام الشباب عندما كنت فتاة جذابة وخفيفة لدرجة كنت معها بقفزة واحدة اجتاز نصف المسرح على رؤوس اصابع قدمي .

ـ انت راقصة الباليه ؟ كلمني زوجي عنك وقال انك كنت ترقصين ايام روسيا القيصرية .

ـ نعم . . . منذ سنوات طويلة .

تلفتت المرأة حولها وجلست على جدار منخفض وأشارت الى إلفي لتجلس بالقرب منها . وضعت القلادة على قلبها وأخذت تتفحص نزيلة القصر الجديدة .

ـ اذن انت متزوجة . اتسمحين لي ان اعرف اسمه ؟

ـ انا متزوجة من السنيور فورتوناتو .

ـ وهل انت سعيدة حتى الافتتان يا حلوة ؟

ـ طبعاً .

ولكن إلفي احمرت قليلاً لأن عيني المرأة كانتا تشعان حكمة ومعرفة وهي تدرسها عن كثب وبصراحة .

ـ كنا ونحن فتيات نقول ان السعادة هبة من السماء كموهبة الرقص أو الغناء . بعضهم تأتيهم السعادة الحقيقية والبعض الآخر تأتيهم في شكل اطمئنان . معظم الفتيات العاقلات يطلبن الاطمئنان والقناعة وترفض أية

فتاة متعقلة الزواج من رجل مثل فورتوناتو .

- الا تحبينه يا سيدتي ؟

- بلى . احبه . الرجال من امثاله لطيفون جداً مع النساء بخاصة اللواتي هن من عمري . اما بالنسبة اليك فقد يكون فاتناً أو شيطاناً مجسماً . انا اعرف ذلك لأني دخلت من هذا الباب وأنا فتاة . . . انظري الى هذا .

كانت يداها العاجيتان ترتجفان وهي تفتح علبة مرصعة في القلادة . في جهة واحدة من العلبة صورة دينية صغيرة وفي الجهة الثانية صورة شاب ذي ملامح بارزة وعينين لوزيتين كعيون الكثيرين من الشرقيين .

- كان اميراً روسياً وضابطاً في الجيش الامبراطوري . وكنت فتاة فقيرة راقصة باليه في مسرح مارينسكي . كان يحبني وكنت أعشقه ولكن منعتنا الفوارق الطبقية من الزواج ، فخططنا للهرب الى بلد حيث لا يعبأ المجتمع بهذه الأمور ، ولكن هبّت الثورة وقتل ايغور وهو يدافع عن امه وأخواته عندما اقتحم الفلاحون أملاك والده . تركت روسيا هرباً من الانتقام لأنهم كانوا يعلمون اني كنت محبوبة الأمير وأخذت معي هذه القلادة التي قدمها لي هدية ، ولم أفرط بها مطلقاً ، وبالرغم من اني ارهنها في كثير من الأحيان لأدفع ايجار غرفتي ولأسد رمقي ، لكن المرأة التي تتخلى عن هدية حبيبها هي امرأة بلا روح . ولا يوجد شيء آخر البسه عوضاً عن القلادة . لم ار شخصاً يشبهه أو رجلاً يثير الجنون ويهب البهجة في آن معاً .

سألتها إلفي بلطف :

- لم تحبي غيره تلك المرة ؟

- لم احب انساناً بعد ايغور . بعض الرجال . . . يتركون غرفتك كمن ينسى الملح على المائدة أو الشراب في حفلة عرس . وسيشعر بالجليد من يضع يدي في يده وستكون قبلاتي متجمدة كالصقيع . كما قلت لك يا طفلتي لا يمكن أن تحب فتاة متعقلة رجلاً كثير الرجولة وذا سطوة . بينما يمكنها أن تتلاءم ورجل لطيف وعادي .

- ولكن سينقص الكثير هذه الفتاة .

لم تع ما قالته واحمرت عندما تنبهت الى ذلك . ضحكت الراقصة القديمة وأطبقت علبة ذكرياتها وقالت :

- الانكليز ماهرون في اخفاء انفعالاتهم ، ومن الواضح انك تحبين

روداري حباً كبيراً .

- اعتقد بأنك تستغربين زواجه من فتاة مثلي .

- كلا . . . ناديني باسمي ، ليديا . كنت راقصة ولكني لم أكن صاحبة جمال فاتن . وليس صحيحاً - وربما تعرفين ذلك - ان الرجال الجذابين يرغبون في النساء الجميلات . من صفات ايغور انه كان يعرف كيف يختار النساء ، ولم افكر أو حتى آمل في انه سينتبه اليّ حتى احدى الليالي عندما خرجت من المسرح الى الثلج في الخارج ورأيته واقفاً ينتظرني وفي يده معطف أسود ألقى به على كتفي . قال بأن صغر جسمي جعله يبدو عملاقاً امامي . وحملني الى عربة الترويكا وهي مزلجة يجرها حصان واحد . سارت بنا العربة في شوارع سانت بيترسبورغ المغطاة بالثلوج على طنطنة أجراس الحصان . كان ذلك سحراً ، حلماً بلا نهاية . رأيت ندف الثلج كحبات اللؤلؤ على معطف الفرو . وقال بأن المعطف لي ويريدني أن احتفظ به . ولكن وجلي في حينه دفعني الى الجدل معه بأن فتيات الباليه الأخريات سيتهمنني باني فتاة متعة ليس الا . قهقه ايغور ضاحكاً ، واستلقى الى الوراء ورنت ضحكاته بحيث بدا كأن الثلج في الشوارع يتجاوب معه .

توقفت ليديا قليلاً وهي تنظر مبتسمة الى إلفي ، ثم أردفت قائلة :

- يا له من رجل متغطرس وعنيد ، عاطفي ، يرفض الخضوع . كان اميراً ينال العروس التي يبتغيها . . . ما عدا راقصة باليه . ولكني شعرت بالسعادة في تلك الليلة ولمس الصقيع كل شيء بعصاه السحرية الفضية . اخذني الى مطعم حيث تناولنا عند نصف الليل عشاء من الكافيار وغيره . وأخذ يناديني دوشكا أي عزيزته الصغيرة ، ولم استطع مقاومة سحره الخبيث ، ولكن كان علي أن اقاومه لأن سعادتنا لم يكن مقدراً لها أن تدوم . وتفجرت الثورة في جميع انحاء البلاد كما انتشر التهامس عما قد يحدث لمن يجري في عروقه دم القياصرة . كنت احب ايغور حباً جنونياً وفي رقص الباليه اتيحت لي فرصة الاختلاط بطبقات الفلاحين الذين كانوا يطمحون الى احتلال مكان من ولدوا ليحكموا . وكنت اعلم ان اسم ايغور كان موجوداً على قائمة من تقرر قتلهم . توسلت اليه بكل قواي ان يرحل من روسيا وهو بعد في عنفوانه حياً يرزق . وأخيراً خططنا للرحيل معاً . آه كل

هذا اصبح من التاريخ ، وأنا ابدو مضجرة أمام فتاة حديثة الزواج .

ـ كلا .

مدت إلفي يدها ولمست يداً نحيلة ذكرتها بكل تلك السنوات التي امضتها هذه المرأة في وحدة تامة بعدما اعطت حباً لم يبق لها شيء منه . انه لشيء مدهش بحد ذاته ولكن محزن ايضاً . تدوم السعادة ما دام الحب الكبير . . .

ـ يسرني ان تعيشي هنا في القصر معنا ، هذا اذا كنت لا تبالين لو انجرفت وراء ذكرياتي عندما نكون معاً .

ركزت العجوز على إلفي عينين سوداوين تألقتا في الماضي البعيد كجوهرتين في وجه فاتن وهذا الوجه الذي ليس فيه جمال بقدر ما يحتفظ بقسط من الجاذبية يلفت الأنظار .

ـ ما زلت تتساءلين كيف حصل لك ذلك ، اي كيف تزوجت من رجل عرف الحياة وله جاذبية خطرة . الحقيقة يا بنية ، فاتك الأوان لأن تتعقلي أو تندمي . اقبلي واقعك وهو ان زوجك من النوع الخارج عن المألوف . تقبلي العاصفة والدموع ، ويستحيل على امرأة تجنبها اذا اختارت أن تحب شيطاناً جميلاً . ولهؤلاء الرجال مسكن يقع بين الأرض والسماء ويذيقون طعم كل منها للمرأة التي يقع عليها اختيار حبهم .

لم تستطع إلفي أن تنظر الى العجوز لأنها ليست اكيدة من أن حب روداري لها هو كحب الأمير لليديا . وتساءلت لو التقت الراقصة القديمة بكاميلا في القصر ولكنها لم تجسر على سؤالها ، فليس للناس أن يعرفوا كم هي غير اكيدة من هذا الروماني الأسمر الذي اتخذها زوجة له . ليديا لطيفة ومدركة ولكن كثيرات غيرها لسن بلطفها ولذا يتوجب عليها أن تتعلم تمثيل دورها . قالت إلفي :

ـ اعتقد بأن ضميري يؤنبني قليلاً . كنت دائماً وأنا ممرضة منشغلة بالقيام بواجبي اما الآن فلدي أوقات فراغ كبيرة ولا ادري كيف اشغلها . في هذه اللحظة بالذات روداري غائب عن البيت في مهمة .

ـ وامتكار الطيّب يهتم بشقتك ، اليس كذلك ؟ اهدأي بالاً يا عزيزتي وافرحي كونك مدللة رجل اعمال ناجح . تعلمي مقدار حاجته اليك ليس في الطبخ أو خياطة الأزرار بل في مساعدتك له في خلق جو استرخاء

واسترخاء في نهاية نهار مضنٍ ، ولا حاجة بك لأن تشعري بأي ذنب من جراء ذلك .

ـ قد ابدو غير واقعية يا ليديا أو امرأة لا تلائم رجلاً من نوع روداري ، ولكني احاول ان اكون المرأة التي يريد مع العلم بأن سواي من النساء الأكثر اثارة دخلن حياته .

ـ هل تغارين منهن ؟ هذا شيء طبيعي . كثيراً ما كنت أقع فريسة لغيرة جنونية عندما كنت اواجه غيري من النساء اللواتي عرفهن ايغور .

اتجه فكر إلفي الى المرأة التي لم تواجهها بعد وتخوفت من امكانية حدوث ذلك يوماً ما ، بل سيحدث ذلك ، هنا في روما ، في حفلة ما أو في مطعم حيث يلتقيان بكاميلا وستكون ساعة عذاب لا يطاق عندما ترى شوقه العظيم لتلك المرأة وعندما ترى نفسها مجبرة على النظر الى جمال الكاميليا بتسريحة شعر تلائم وجهها المتكامل بشفتيه الحمراوين وبابتسامة الموناليزا .

هكذا كوّنت إلفي صورة لتلك المرأة وخشيت انها ستبدو غير ثابتة وساذجة أمام امرأة مرنة رشيقة القوام صنعت خصيصاً لروداري وولدت لتتزين بالياقوت ولتدخل جمالاً الى اسمه والى بيته ولتواجه عالمه الاجتماعي والعملي بكل هدوء .

ـ كنت ممرضة اذن ؟ وهل رآك روداري في بزّة العمل ؟

ـ نعم .

ابتسمت إلفي وتذكّرت كيف لمعت عيناه السوداوان لبزتها البيضاء والزرقاء وكيف ركز نظره عليها بخاصة على ساعة الجيب المعلقة تماماً فوق قلبها . وكانت هذه المرة الأولى التي تحمر فيها وجنتاها . قد يحدث أي شيء في مهنة التمريض ، لكن الاحمرار ارتباكاً ؟

ـ من المؤكد ان حياة الرقص مثيرة جداً .

تجمعت خطوط التجاعيد في وجه الراقصة لتنم عن ابتسامة :

ـ نعم ، مثيرة . كانت الراقصات يبتهجن في الحفلات التي تكون فيها المقصورات الملكية مشغولة . الواحدة منا تحاول جاهدة أن تبز الأخرى وأن تنافسها لأقصى الحدود . وأحياناً كنت اسمع بعد عرضي الفردي على المسرح ضحكة خافتة في ظلام المسرح . وكان يجد ايغور تسلية عندما كنت

اعرض مهارتي في وقفة الأرابسك مدة أطول من الأخريات وهي النقطة التي تقف عندها الراقصة على قدم واحدة مادة احدى ذراعيها الى الأمام رادة القدم والذراع الآخرين الى الوراء . وكثيراً ما كان يردد على مسامعي أثناء العشاء انه سيظل يحبني حتى لو رقصت مثل البطة . ولم انقطع عن سؤاله لماذا اختارني انا من بين الأخريات لأكون فتاته عندما كانت الراقصات الأخريات في تياترو مارينسكي اكثر جمالاً بكثير . اتعرفين جوابه ؟ قال أن ليس لي في العالم احد غيره احبه ومعنى هذا اني اعطيه كل حبي . نعم . انه متغطرس ، ولكن أي فتاة تستطيع أن تقاوم رجلاً يأمرها أن تكون له بكليتها ؟ لم يسمح لي أن اقتني حتى قطة . قدم لي حصاناً صغيراً وعلّمني ركوب الخيل . ومرّة سقطت عن خشبة المسرح فحملني الى حمّام بخاري وأبقاني فيه حتى اختفى ألمي . كان يقسو احياناً ولكني كنت مستعدة لأموت من اجله .

وتأملت ليديا القلادة التي وضعها الأمير منذ زمن حول عنقها وقالت :

ـ كان يأخذني الى كل مكان ما عدا بيته وكان هناك يوم ثار الفلاحون وهاجموا النظام القديم . ولم يكن والده رجلاً فظاً الا ان العصيان جرف كل شيء وسمعت فيما بعد ان ايغور مات حاملاً بين ذراعيه جثة ناتاليا شقيقته الصغيرة . لذلك كثيراً ما حسدت ناتاليا .

ـ لا تتكلمي هكذا . بقيت راقصة مدة سنوات طويلة وقدمت البهجة للعديد من الناس .

ـ صحيح . رقصت للرجال والنساء ، والآن اكتب قصصاً للأطفال . ولا اريد أن افاجئك اذا قلت لك ان زوجك تكرّم وقدمني الى احد الناشرين والآن يساعدني دخلي لاضافة شيء على راتبي التقاعدي وبذا اتمكن من قضاء ايامي في هذا القصر الرومانطيقي القديم . وآمل انك ستحبين العيش هنا . من هنا نطل على المدينة التي يبدو منظرها سحرياً في الليل .

ـ حظّر عليّ روداري مشاهدة المنظر قبل الليلة الأولى .

ـ وهل عصيت امره وتطلعت ؟

ـ كلا ، ليس لأني اريد ان اطيع رغباته بمذلة بل لأني احب ان اشاهد روما عند الغسق .

ـ لتطبعي الذكرى في ذهنك ؟

ـ ربما .

مدت إلفي يدها وضمت فيها تفتح زهر الليمون الذي ذكرها بالجزيرة .

ـ لا يعرف الانسان شيئاً عن مستقبله ، وما هو واقع اليوم قد يتحول الى حلم غداً .

ـ انت خائفة من المستقبل .

ـ نعم ، بعض الشيء ، لم التقي بعد بشركاء روداري وأصدقائه وقد لا اتلاءم وحياته . انه رجل غير عادي . لم اتوقع أن تقع عيني على مثله ناهيك عن الزواج به . اشعر باني غير وفية تماماً .

ابتسمت ليديا وربتت على خد الفي :

ـ هل يظن هو كذلك ؟ جلدك جميل وعيناك رماديتان واسعتان . انت رشيقة ووجلة ولم يلمسك احد غير فورتوناتو الكبير ، الأسمر ، المميز . ربما يعتبر نفسه محظوظاً لامتلاك عروس مظهرها هادىء وقلبها الانكليزي حار . الا تعرفين كم نعجب بالبريطانيين ؟

ـ هل يكفي ان تكون الزوجة هادئة الأعصاب ومتسامحة ؟

ـ يبدو لي انك تشكين في حب زوجك لك .

ـ لا يسعني الا ان اشك .

ـ ربما لأنه كانت هناك احد غيرك ؟

ـ لأني اعتقد بانه تزوجني لينتقم من كاميلا .

ـ آه . . . تعرفين اسمها ؟

ـ رأيت اسمها مكتوباً داخل كتاب في شقتنا . انا اكيدة من ان الاسم على المسمى ومن ان جمالها يطابق اسمها وله الروعة نفسها .

ـ نعم . انها كثيرة الجمال .

ارتعشت إلفي قليلاً لا غيرة بل استسلاماً ، وقالت :

ـ اعرف انها تزوجت من رجل آخر .

ـ طار صيت هذا الزواج وكتبت الصحف عنه المقالات المطولة ، فزواج كونتيسة جميلة شابة من احد اقطاب النفط الاميركيين حدث غير عادي .

سألت إلفي ليديا بذهول :

ـ ولكن قيل لي انها كانت مخطوبة للرجل الآخر منذ طفولتها .

ـ هذا صحيح . وقد هاجر الى اميركا ليجمع ثروة وتجنس بالجنسية الاميركية . وبعد أن أثرى عاد الى ايطاليا ليتخذ كاميلا زوجة له . واشيع انه مصاب بمرض عضال ولكنه شفي الآن بفضل دواء جديد وهما الآن زوجان غنيان . . . معلوماتي استقيها من الجرائد التي تكتب عنها الكثير .

ـ الكل يعرف عني . . . اصدقاؤه وغيرهم . . . وعليّ أن اواجههم جميعاً ، وللقيام بذلك يجب أن اتحلى بالشجاعة . . . انا ، الممرضة الانكليزية التي تزوجها عشوائياً وتحدياً . سيشفقون علي ، وقد يحتقرونني ، وأشعر اني اكرهه . . . بأي حق تزوجني ؟

ـ اكنت شعرت بالارتياح لو كان عشيقاً لك ولم يتزوجك ؟

ـ ما كنت سمحت له بذلك !

ـ لا ؟ (ضحكت ليديا ساخرة) هذا النوع من الرجال يمتلك موهبة الأغواء ولو اراد روداري فورتوناتو اغواءك لنجح في ذلك قبل أن تفكري حتى في الرفض . النساء لسن كالرجال في كل ما يتعلق بالحب ، فهن ضحايا ضعيفة لحبهن ، والأذكياء من الرجال كزوجك يعرفون ذلك ، ولو اراد روداري لامتلكك بخاتم أو بلا خاتم

ـ اذن يجب أن اقر بجميله لانه تزوجني ؟

ـ اذا كنت تحبينه طبعاً .

ـ لا . . . لا اعرف بالضبط .

وفجأة قفزت إلفي واقفة وحدقت في القصر كأنها خائفة ، اذ بدا القصر لها كسجن بأبراجه وشرفاته المشبكة وقالت :

ـ لا انقطع عن التعرض لحياته الماضية . .

ـ هل توقعت أن يكون ملاكاً ؟

ـ لا ، هو نفسه يسميني عروس ابليس .

ـ هذه مزحة طبعاً ؟

ـ . . . اوه . . . لماذا لم يدعني وشأني لاتابع مهنة التمريض ؟ كنت مقتنعة بعملي ولم اشته ان اعيش في قصر روماني مع رجل جذاب لا يقاوم .

ـ كثيرات غيرك يشتهين أن يكن في مكانك .

ـ كانت مهنتي مهمة ومثيرة .

ـ وهكذا كانت مهنتي ايضاً ، وكنت افضل ان اتألم من كسر في ساقي على

أن اخسر الرجل الذي احببته ! لا يبلغ أي رجل حد الكمال خاصة في منتصف الثلاثينات وله وجه روماني جميل !

ـ ولكن وجهه ليس مثال الكمال .

ـ اوافقك . والآن كفي عن الظهور بالحمق والتخري بخاتم الياقوت الذي البسك اياه . دعيه يجمّلك بثياب انيقة ويعانقك الليل بطوله اذا رغب في ذلك . انه رجل اولاً واخيراً . تمتعي بذلك وسامحيه على بعض طباعه الشيطانية . فكري في الأشياء التي كنت ستفقدينها لو انك تزوجت من طبيب عادي مهووس بالقيام بواجبه فقط !

ـ انا مسرورة بوجود صديقة في القصر .

ـ تعالي الي كلما خطر على بالك . شقتي في الطابق الأرضي ، والفرق شاسع بين رفقة غراب ورفقة صبية تعيد اليّ حنين الماضي الرومانطيقي الذي بدونه قد اشعر بالضياع .

كادت الدمعة تطفر من عيني إلفي . فهي ناكرة للجميل . روداري لها وستعايشه في السراء والضراء . واخذت تقول لنفسها انها لا ترغب في أن تكون مرضة مجهولة في بلد غريب . لن يتأخر في العودة الى بيته الآن وسيدخل الصالون الصغير ويدخل معه عنفوانه وروعته التي تفرض حبه رغم كل شيء .

ـ يحسن بي أن اعود الى شقتي . سررت بمحادثتك يا مدام ليديا .

ـ سرّني التعرف اليك كما كان يسرني الرقص في انكلترا حيث عرض علي مرة رجل انكليزي ظريف ان يتزوجني ، ولم ار من العدل أن اكون زوجته وقلبي وجسمي يتلهفان الى عزيزي ايغور .

بدت ليديا نحيلة وحزينة في معطفها الواسع وهي جالسة على الجدار المكسو بالطحلب . تحولت الشمس ارجوانية حمراء في سماء روما بينما كانت الطيور تزقزق على الأشجار والنسيم يرتفع في الحديقة .

ـ طابت ليلتك يا صغيرتي . الى اللقاء .

٥ - حمل بين ذئاب

كانت أنوار روما تتلألأ كأضواء الحباحب في ظلام الليل . ولم تنتظر إلفي طويلاً لتشاهد هذا المنظر بعد سدول الظلام . فلما رأت أن روداري تأخر عن موعد العشاء جلست وحدها وأكلت الطعام اللذيذ الذي أعده املكار . خرجت الى الشرفة في فستانها المزركش بالفضة وتأملت روما في أول ليلة لها . ومما أضاف على هذا المشهد رونقاً هو انطلاق نبات الماغنوليا على درابزون الشرفة لكن عاصفة من الانفعالات تأججت في قلبها . ألم يكن في مقدوره أن يفضلها في أول ليلة لها في روما على أصدقاء العمل ؟ هذا اذا كان حقاً مع لاشباني منتج الأفلام القائمة على مؤلفات روداري .

ما أوحش وجودها في ليلة هادئة وسط شقتها فوق المدينة التي تعج بالناس وتتألق بالأنوار . تصوّرت الناس جالسين على سطيحات المطاعم يستمعون الى انغام الموسيقى الشجية وهناك تتلاقى السمراء وتتشابك الأيدي .

أحست إلفي بغصة في حلقها . فقد وعدها روداري بأن يرجع عند الغسق وها هي الساعة التاسعة وأكثر ولم يعد . نظف أملكار المائدة وأطفأ الشموع وقال انه سيحتفظ بعشاء السنيور ساخناً لعله يريد أن يتناول شيئاً من الطعام لدى عودته . لكن من المؤكد انه لم يبق بلا طعام حتى هذه اللحظة اذ لم يف بوعده في العودة للعشاء . ربما هو الآن برفقة اصدقاء قدماء . . . أو امرأة اخرى .

وخزتها الشكوك بشدة وذكرتها أزهار الماغنوليا بوجه ابيض ووجه آخر أسمر متلازم الواحد مع الآخر . من المحتمل أن يكون روداري مع كاميلا

الآن . هل دفعته عودته الى روما للبحث عنها ؟ أم لم يعد يطيق البعاد عنها برغم زواجه من امرأة اخرى لم تكد تبدأ شهر عسلها ؟

- سيدتي ؟

استدارت نحو الصوت ورأت املكار واقفاً في مدخل الباب . مرتدياً سترة الخروج وقبعته المستديرة في يده .

- هل ستكونين بخير يا سيدتي اذا تركتك الآن ؟

- طبعاً يا املكار وكان الطعام لذيذاً . . . شكراً لك !

تعرف إلفي أن والدة املكار بانتظاره ولا تحب أن تكون وحدها في الليل .

- شكراً يا سيدتي . تركت لك بعض القهوة . طابت ليلتك يا سيدتي .

- وليلتك أنت ايضاً . تحياتي الى والدتك .

- سيدتي لطيفة جداً .

نظر ملياً الى هذه المرأة النحيلة في فستانها الأبيض الذي كان يعكس لونه بصورة ضئيلة في ضوء النجوم . وانحنى لها وانسحب وبعد قليل سمعت إلفي الباب يغلق خلفه . أصبحت وحيدة في روما ترافقها أفكارها فقط والحباحب بين أوراق الماغنوليا . ورفقة الأفكار المعذبة ليست مرغوباً بها في وحدتها على الشرفة . شردت عن أفكارها قليلاً عندما سمعت احدى الساعات على احدى التلال تعلن الحادية عشرة ليلاً . دخلت وأطفأت السخانة الصغيرة التي كان طعام روداري عليها ، فقد لا يحتاجه . . . كما لم يكن بحاجة الى رفقتها .

ذهبت الى غرفتها لتنام . ووصل الى سمعها صوت موسيقى في مكان ما في القصر . انه لحن من اوبرا بوتشيني وتلاءم هذا اللحن مع مزاج إلفي التي كانت تمشط شعرها أمام المرآة . كان نور المصباح يشع بضوء أزرق خافت في الغرفة حيث ستنام وحيدة بل ستتظاهر بالنوم لو عاد الآن روداري .

تدلى شعرها الجميل حتى كتفيها وأدارت وجهها عن المرآة لأنها لا تحب هذه النظرة التي في عينيها فهي تعكس شقاءها .

اخذت تمشي في اتجاه الغرفة على البساط الناعم الرمادي الفضي اللون ، اما السرير فهو بشكل غير عادي وغطاؤه من الشيفون الناعم قاتم

على منصة لها عدد من الدرجات وله لحاف مطرز بالقصب الفضي . في الغرفة مصباح واحد فقط يلقي ظلالاً جميلة كظلال رقص الباليه ، اما دولاب ثياب إلفي فله أبواب عليها مرايا طويلة ولكنه ليس فيه الكثير من الجهاز . ورنت في اذنيها كلمات زوجها عندما قال لها في زيارتها للشقة لدى وصولها :

- ستملأ هذه الخزانة ثياباً من الحائط الى الحائط اذ بصفتك زوجتي يجب ان تظهري بمظهر أنيق جداً ، وأريد أن يكون لك كل ما لم تتمكني من الحصول عليه .

وتراقصت الأفكار المتضاربة في مخيلتها . أثواب من حرير وقلب متألم . ملابس تحتية ناعمة وشقة خاوية من وجود من هو موجود الآن مع كاميلا .

خفت صوت الموسيقى وسمعت صرير مصراع نافذة في الشقة . ولم تخفف رائحة الورد المخملي من مللها وكآبتها فتناولت كتاباً واستلقت على كرسي طويل لتقرأ . دقت الساعة الموجودة بجانب السرير ولملمت إلفي رجليها تحت ثوبها وبدت صغيرة الحجم كالطفل وغطى شعرها جانب وجهها المستغرق في التفكير . وعزمت على الذهاب الى سريرها عندما تدق الساعة ثانية ولكنها ستأتي اولاً على هذا الفصل بكامله من كتاب روداري لعله يعينها على فهم زوجها . كانت طبعة هذا الكتاب بالانكليزية وعنوانه « الأميرة كابريس » وافتتنت به كلياً ولكنها لم تفهم الرجل الذي تحبه كابريس (وكلمة كابريس الفرنسية تعني نزوة أو هوى) . فبينما ترى فيه رجلاً عاصياً ترى أيضاً انه ضحية ولكنها تعاطفت مع كابريس عندما صرخت هذه الأخيرة في وجه رجل حياتها قائلة :

- اني اكرهك لأنك آلمتني . ليتني استطيع الخلاص منك وحتى لو استطعت فسأترك لك قلبي حتى تستمر في تحطيمه .

رفعت إلفي رأسها عن الكتاب . نعم . هذا هو وضعها . مهما أسرعت بالهرب منه ومهما أبعدت فانها لن تفلت منه لأنها بكل حماقة قدمت له قلبها ليتلاعب به أو ليحطمه . ألم يسخر من قلبها هذه الليلة متعمداً ؟ لن يجدها ساهرة تنتظره اذا عاد الآن . اخفت كتابه تحت أحدى الوسائد وذهبت الى سريرها . خلعت ثوبها واندست تحت الأغطية وأحست ببرود الحرير على ذراعيها العاريين وازدادت رائحة الورد في ظلام الغرفة ، ولكي

تنام دفنت رأسها في الوسادة الحريرية الكبيرة وأغمضت عينيها وأملت أن تغفو لئلا تحس بمجيئه عندما يعود .

كانت شبه نائمة عندما سمعت صوت مفتاح يدور في باب المدخل فاستعادت كل وعيها وانتصبت جالسة ثم ما لبثت أن عادت فتمددت وأخذ قلبها يخفق بقوة وتوترت اعصابها وحنقت عندما سمعت روداري يصفر وهو يدخل الصالون الصغير . عرفت انه سكب لنفسه بعض القهوة اذ سمعت صوت ملعقة في فنجان . والمسافة بينهما لم تمنع رائحة سيكاره من الوصول اليها . ومرة اخرى سمعت صوت الملعقة ، فهو لن يتوانى الآن عن الانتهاء من رشف قهوته وتدخين سيكاره ليدخل بعد ذلك غرفتها فيغمر الغرفة النور الآتي من الصالون وعندها سيقترب من السرير ليرى ان كانت نائمة ام لا .

أطبقت جفنيها بشدة وهكذا سيخيب ظنه في زوجة لم تنتظره حتى عودته .

زاد توترها توقعاً لدخوله الغرفة . وفتح الباب وانيرت الغرفة وتخيلته واقفاً في الباب متفحصاً .

اقترب من السرير بكل هدوء وانحنى فوقها وأحست بتنفسه فوق شعرها ولفحتها رائحة غريبة فيه .

صدمتها هذه الرائحة واختلف تواتر تنفسها فلاحظ ذلك .

- اعرف انك لست نائمة . تكونين وأنت نائمة هادئة كالسحلية في الشمس ، اما الآن فانك ترتعشين .

- انا لا ارتعش !

ازاحت يده عنها وابتعدت الى الطرف الآخر من السرير . وبصورة فجائية رفع المصباح في يده وأخذا يحدقان في عيني بعضهما البعض . قالت له بصوت لا حياة فيه :

- انت شربت !

- قليلاً ، احتفالاً بانتصاري على لانشياني الذي كان يصر على أن تقوم بالدور الرئيسي في فيلم « الحصرم » ممثلة صديقة له وأنا اصررت على ان تلعبه روزا انجيلكا ولا احد سواها . والا فلا اقبال على شباك التذاكر ولا وسام الأسد الذهبي ليضيفه صديقي المدير المتبجح على مجموعته .

ـ للمرة الثانية تتصرف كما تشاء .

ـ نعم يا عزيزتي .

ضاقت عيناه وهو ينظر الى وجهها الذي كان يعبر عن الاهانة والغضب اللذين تملكا منها بسبب هجرها طيلة المساء بالاضافة الى عذاب الشك ومع ذلك لم تستطع مقاومة السهم الناري في عينيه وأخذت تشك في صحة اتهامها له . انها بشبابها وسذاجتها أضعف من أن تقاوم هذا الرجل الجذاب صاحب الخبرة وابن المجتمع والحاضر الذهن .

شدت بقبضتها على غطاء السرير وشعرت برغبة جامحة لترد له ضربته ولتهينه بدورها :

ـ من المفترض كعروس صغيرة بسيطة ان اعتقد بانك استغرقت كل هذا الوقت لتنفذ رغبتك المهنية بينما لا يلزمك اكثر من ساعة واحدة .

ـ هل تشكين في كلامي ؟

ـ الوقت الآن بعد منتصف الليل وكنت وعدتني بأن تعود في موعد العشاء .

ـ انك تحاولين ترويضي .

ـ كنت آمل فقط أن تحترم وعدك .

ـ لم انوِ مطلقاً بأني الزوج المثالي الذي يأتي الى البيت عند السادسة تماماً ويمضي امسيته مع الغليون والجريدة . انا مرتبط بجماعات يعتبرون نصف الليل وقت الاستمتاع والاسترخاء .

ـ بالنسبة الي نصف الليل امضيته ساهرة انتظر .

ـ في روما انه ساعة السمر . وبالفعل اتيت الى البيت بنية خلع ملابس النوم عنك والباسك فستاناً للرقص لنذهب معاً ونرقص مدة ساعة أو ساعتين في مقهى الكازانوفا .

ـ هل أثقلت على ضميرك حتى تذكرني فجأة ؟

ـ كلا يا عزيزتي . قلما افكر في أي شيء غير عملي وأنا منهمك به .

ـ لا زوجة للسنيور لانشياني حتى يعود اليها ؟

ـ انه مطلق .

ـ ظننت ان الايطاليين لا يحبذون الطلاق .

ـ كانت زوجته ممثلة انكليزية . وهي التي طلقته .

ـ فهمت . الهذا تزوجت من فتاة انكليزية ؟

كانت وهي تتكلم تغرز اظافرها في الغطاء الحريري وهي ملمومة على بعضها كالكرة في وضع دفاع عن النفس .

نزل عليهما صمت ثقيل ، كانت تكتكات الساعة تزيده توتراً . ثبت روداري عينيه فيها واكتسب وجهها هيئة وجه مقنّع ، ثم أخذ يتحوّل من مكانه الى أن سيطر بطوله على الجسم الصغير الذي شعر بانه تلقى ضربة بدون أن يضرب . احست بتوتر شديد وبخفقات قلبها تتسارع وبثقل سكونها الذي خانها وهو يصرخ طالباً حباً يتكره عليها . من غير المعقول ان يحب شخص ما انساناً بهذه الغطرسة ومع ذلك فانها تحبه بكل جوارحها . قالت له :

ـ لم اتوهم يوماً اني تزوجتك لانك لا تستطيع شيئاً بدوني . انما سحرك اعماني ولكن عيني تفتحتا الآن .

ـ واتسعتا بلونهما الرمادي في وحدة تكاد تؤدي الى الدموع . قولي باني طائش وعديم التفكير . اضربيني بالوسادة ان كان يخفف عنك ذلك ولكن لا تتهميني بدون مبررات ولا تتشبثي باي ظن بدون وجود رائحة عطر على سترتي . وما شممته لم يكن عطراً .

ـ هل سيكون عطراً المرة المقبلة ؟

ـ قد يحدث ذلك اذا لم تحاذري وتتوقفي عند حدك !

ـ هل يحرّم عليّ التعبير عن فكري ؟ هل هذا امتياز وقف على الزوج الايطالي فقط ؟

ـ انه امتياز موقوف على البالغين ، وانت تصرّفت كطفل مزعج هذه الليلة .

ـ هل من اللياقة أن يعد الزوج وفي نيته عدم الوفاء ؟

ـ الهذا الحدّ خاب املك لأني لم اشاركك اول امسية لك في روما ؟ اذن اسمحي لي بأن اعوض عليك ما خسرته في غيابي .

وبسرعة فائقة انحنى فوقها وانتزعها من مكانها وجرى بها الى الشرفة حاملاً اياها بين ذراعيه ووضعها عند الدرابزون بحيث شاهدا معاً أنوار الأندية الليلية التي ما زالت تشع بأضوائها .

ـ هذا جنون منك يا روداري !

تشبثت بكتفيه مرتعبة وعندها أحست بقوته ودفئه . احنى رأسه وابتسمت عيناه لها وهالها أن يعانق رجل امرأة بهذا الشكل ومن مرتفعات مدينة روما .

اهتزت الشرفة وبدت الأنوار كأنها تغطس وتتأرجح واندفع روداري بها عبر غرفة النوم فالممر حتى وصلا المدخل المقنطر وهنا اهتزت الأرض مرة اخرى وسمعا صوت احجار تتهاوى في الشارع .

ـ هذا زلزال (قال روداري متمتماً) زلزال صيفي سيزعزع بعض الحجارة فقط ويحطم بعض النوافذ . . . هذا اذا كنا محظوظين .

التصقت به إلفي بينما كانت مصاريع النوافذ تضرب بعنف والناس يهرولون درجات القصر الى الأقبية التي كانت زنزانات في الماضي البعيد .

لم يفكر روداري بالنزول الى الأقبية وبقي محتفظاً بها معه حتى بدا لها ان الهدوء عاد كالسابق فعاد بها الى السرير وغطاها .

ـ استريحي الآن يا صديقتي . لن تهتز الأرض بعد الآن .

رفعت نظرها اليه وفجأة بدا لها ان شجارها معه آلمها اكثر مما كان عليه قبل الزلزال .

ـ روداري . . .

ـ إلفي ؟

ـ اني آسفة لسلوكي كطفلة . شعرت بالوحدة ولكني تحققت الآن من ان العمل له الأولوية على كل شيء .

ـ اني لاتساءل عن المهمة التي ظننت اني قمت بها . مقابلة سرية مع امرأة اخرى في بيت خارج المدينة ؟ يجب أن تعرفي قوة سحرك . جلد ناعم مخملي كالدراق . . . هل عفوت عني لتركك وحدك ؟

ـ نعم . . . لا يجب أن يفترق الناس بدون تسوية .

ـ هل نحن على وشك أن نفترق ؟

ـ ألم تتمنى لي ليلة سعيدة ؟

لم تستطع تجنب نظرته النارية عندما تطلعت اليه واختلط عليها الأمر بعدما غضبت منه .

ـ كان ذلك منذ خمس دقائق يا صديقتي .

جال بنظره على وجهها وثبته على ذراعيها وعنقها الجميل . وجذبها نحوه

لا لحمايتها بل ليمتلكها . . . كما لو تحركت الأرض ثانية رغم مرور الزلزال .

كانت إلفي تتوقع الانغماس في حياة زوجها الاجتماعية ، ولذا لم تعترض عندما عرض عليها روداري أن ترافقه الى عرض أزياء روماني لتبتاع لنفسها ثياباً لجميع المناسبات .

ذهبا في سيارته عبر شوارع كان فيها السير سريعاً كثيفاً مارين بين ابنية ذات ابراج وقباب . وجدت إلفي متعة في التناقض بين المارة العصريين وأبنية الكوليسيوم التاريخية الرائعة الصيت حيث توقفا لالقاء نظرة على خرائب هذه الأبهة الغابرة ، وهناك سارا تحت الاسوار حيث كان الرومان يصخبون والأسود تزأر والشهداء يموتون . ارتعشت قليلاً لذكر هذا التاريخ وأحست بأصابع روداري تضغط على مرفقها وهو يقول :

ـ يا لها من مشاهد رهيبة !

ـ مشاهد وثنية .

رفعت نظرها اليه ورأت جانب وجهه في زرقة السماء وشكل انفه المهيب وتكوين فمه المتكامل وعظمة وجنته التي تدل على أجيال من النسل الرفيع والنظر العميق في عينيه . وكانت قريباً منهما امرأة تبيع كرزاً . مشى روداري اليها بخطى وئيدة واشترى سلة مليئة بهذه الفاكهة الحمراء التي تلذذا بأكلها في طريق عودتهما الى السيارة .

ـ شفتاك تلمعان بعصارة الكرز ، ستفكر اداليا دوماني اني تزوجت من طفلة .

دخل بسيارته جادة جميلة تكتنفها أشجار تظلل واجهات المخازن وأوقفها على أرض عشبية واتجه كلاهما الى مبنى عرض الأزياء القائم خلف ابواب مذهبة والمفروش ببحر من السجاد السميك والمزين بمرايا عكست مكتباً هلالي الشكل تحتله مضيفة ما أن رأت روداري حتى ابتسمت مرتبكة وبسرعة تناولت سماعة الهاتف .

ـ نعم يا سيدتي . سارسلها لك حالاً .

توردت وجنتا المضيفة وهي ترافقهما الى مصعد مذهب أوصلهما الى قاعة عرض رائعة ثرياتها قطع ضخمة من الجواهر تتدلى منها قطع جواهر أصغر حجماً . اما جدران القاعة فتعج بالجص المرسوم بالحوريات وتنافذ البحر

والشواطىء . رأت إلفي أن القاعة أشبه بصالة رقص وتراجعت أمام نظرة زوجها الخبيثة وضحكت :

- اما زلت اخيفك ؟

- انك تخيف اية امرأة تنظر اليها .

ولتتجنب نظراته اخرجت علبة التجميل من حقيبتها وجددت حمرة شفتيها الزهريتين . فهي اكيدة من أن المضيفة ظنت انهما كانا يتبادلان القبل . قالت إلفي بعصبية :

- ان هذا المكان باهظ الكلفة .

- احد اغلى المحلات يا عزيزتي . انه اطراء لك أن اقدم لك اجمل ثياب في روما بأسرها .

تقدم نحوها خطوة ولكنه توقف اذ اقتربت منها امرأة طويلة القامة ، سمراء ، بالغة الرشاقة ترتدي تنورة طويلة من المخمل الاخضر وقميصاً من الحرير الكريمي تفصيله رجالي اكثر منه نسائي . مدت المرأة يديها الى الأمام وقالت مرحبة :

- اهلاً يا صديقي . انه لجميل حقاً أن اراك ثانية . سمعت بعودتك الى روما التي تبدو اكثر رومانية بوجودك فيها . هل استمتعت بعطلتك ؟

- جداً جداً .

رفع يد المرأة الرشيقة وقبلها .

- وجدت لنفسي عروساً انكليزية . . . هل وصلتك اشاعة هذا الخبر المثير للفضول ؟

- سمعت الاشاعة ولكن . . .

التفتت المرأة ونظرت الى إلفي بعينيها السمراوين وقالت بصراحة :

- صحيح . انكليزية بكل ما في الكلمة من معنى . تريد ان اجهزها ؟

- من قمة رأسها الى اخمص قدميها يا اداليا . من اذنيها حتى كاحليها ، ولتكن الملابس ملائمة لكل المناسبات .

- يا بنيتي العزيزة . دعيني ارحب بك في روما بخاصة كونك عروس فورتوناتو .

- اشكرك يا سنيورا .

أحست إلفي بخواتم السيدة تنغرز في يدها واعجبها ضغط اليد

اللطيف المخلص ورأت في هذه السيدة مصممة الأزياء الرومانية امرأة غير مترددة وفي عينيها نظرة دعابة وأثراً من الود الروماني .

- وأخيراً يا روداري تراجعت عن تحديك للزواج . وستكتئب وجوه عديدة هذا الصيف في روما اذ كنت دائماً ذلك الأعزب الذي يثير اكبر الاهتمامات لدى عقيلات المجتمع اللواتي لهن مصلحة في عرض بناتهن في سوق الزواج .

- سوداوية التفكير يا اداليا . الكل يعلم انك تجدين متعة في تجهيز العرائس اكثر من متعتك في السباقات .

- تمنحني مطلق الحرية في الباس عروسك ؟

- لك تفويض تام .

- وبدون مراقبة ؟ يعني اني استطيع توديعك لتذهب الى عملك؟

- في نيتي ان اترك إلفي بين يديك الماهرتين والساحرتين ، وستجدينها فتاة سهلة الانقياد ، واذا صدف وأن غرزت خطأ دبوساً في يدك فانها ستعالجك . كانت مرضة عندما وجدتها ، ولكن لا تجعلي ثيابها زائدة النعومة واللمعان لا استطيع معها لمسها .

نظر الى إلفي نظرة ود عميقة وحميمة ، ثم أضاف :

- فاجئيني عندما اعود عند الغداء يا اداليا لأرافق إلفي الى شقيقتي في حدائق ابولو .

قالت إلفي مندهشة :

- ولكنك لم تقل شيئاً هذا الصباح عن مقابلة هلين !

رأت في عينيه نظرة البغتة والتخوف . قال :

- صحيح . كنت منشغل البال . . . في الواقع تلفنت لي باكراً عارضة علي أن تتغدى معها ، وهي متشوقة لتتعرف الى عروس شقيقها الجديدة .

- اعتقد بانها فضولية كغيرها من الناس .

ضحك روداري وقال موجهاً كلامه الى اداليا :

- تخشى عروسي أن يعتقد اصدقائي باني تزوجتها على عجل فاندم في اوقات فراغي . وما يساعدها على أن تثق في نفسها خزانة محشوة باجمل ثياب من مؤسسة دوماني . والآن انا ذاهب الى الستوديوهات . نختلف انا ولانشيا في كل شيء عند بداية اي فيلم ولكننا نتفق فيما بعد فنتتج اشياء

مذهلة .

- الشاهر المألوف بين رجلين وفيري المواهب يتعاونان تعاوناً كلياً لكنهما دوماً على وشك الشجار (وتابعت كلامها وهي تبتسم لإلفي) أحياناً يتحوّل امهر الرجال الى صبية وأحياناً الى شياطين . من أين اتتك الشجاعة لتتزوجي من هذا الرجل ؟

- انتزعتها من خطر انهيار كتل الثلج ... الى اللقاء .

أخذ يد اداليا وقبّلها ثم انحنى وقبّل صدغ إلفي . واستدار وتركهما بخطى واسعة وبرزت رجولته في الوان الجص ثم اختفى في المصعد .

تطلعت اداليا بكل صراحة في إلفي التي تزوجها بسرعة وبسرية تامة وقالت :

- هذا الرجل ديناميكي . ووقعت مثل قطعة فضة التقطها واحتفظ بها . لا اعرف يا عزيزتي ما اذا يجب أن احسدك أو ان اعزيك . هل انت ... سعيدة معه ؟

- السعادة مجرد كلمة ذات عدة معان

- تحبينه ... كثيراً ؟

- احبه ... بغض النظر .

- بغض النظر عن عدة اشاعات ، اليس كذلك ؟

- من المستحيل على رجل كثير الجاذبية كهذا ألا يكون قد قام بعلاقات مع نساء اكثر فتنة مني .

- هل تحبين أن تظهري امامه في مظهر فاتن ساحر ؟

- احب ان اكون مليحة بقدر المستطاع .

- اذن ، تعالي معي لنرى أنواع القماش ونقرر أي زي يلائم مظهرك الانكليزي الهادىء . والميزة التي ستتمتعين بها هي انك شقراء بين النساء الرومانيات ... ولا ادري ما اذا سيقتلني روداري اذا انا ارسلتك عند مزيّن الشعر ليحسن تسريحة شعرك . قصتك التي يلتف فيها شعرك نحو الداخل حلوة لكنها عتيقة الطراز نوعاً ما ، وأفضل أن تكون لك خصلة متدلية فوق هاتين العينين . دعيني اتأملك . اظن ان الوانك هي الفضي وارجوان الغسق ومسحة من اللون الناري ، وهذه الوان الشجاعة والنقاوة . تعالي يا عزيزتي . اني اعتقد بانك ستعجبين رجلك بعد أن

انتهي منك .

وفي لحظة وقفت إلفي شبه عارية تلف جسمها أطوال من الحرير والأطلس والشيفون عدا المخمل والصوف الناعم . وكانت اداليا ومساعدها الشاب يدوران حول إلفي ويتباحثان بالايطالية في شكلها كأنها دمية لا حياة فيها ولا دم يصعد الى وجنتيها وهما يقيسان صدرها ويشبهانه بوردتين .

- يمكن التخفيض عند الخصر اما وركاها فيلائمها القماش المخملي بالعشرات من الثنيات الدقيقة .

التقت عيناها بعيني الشاب ودهشت لدلالتهما على منتهى الرجولة مع شيء من قلة الحشمة فيهما . فهم الشاب اتجاه افكارها وضحك منها في سره . انه يساعد اداليا في تصميم ثياب رائعة لجميع انواع النساء ولكن ليس فيه أي اثر من التخنث . على العكس ، كان واثقاً من نفسه كل الثقة ولكنه قبيح . ولاحظت شعره الخشن المجعد وابتسامته العريضة الجانبية وعينيه اللوزيتي الشكل .

تناديه اداليا باسم راف . في حركاته بعض الخلاعة الا ان لمساته في منتهى الرقة .

- ارى ان المعطف البنفسجي الفضفاض يناسب السيدة تماماً . تذكرين المعطف الذي قدمناه لامرأة السفير ورفضته فيما بعد بحجة انه يجعلها تبدو فيه باهتة كما قالت ؟

- نعم . انك فطن يا راف . ارجوك أن تأتي به لنجربه على إلفي .

ابتعد عنهما بخفة ورشاقة الراقص وبخطوات الفهد ، ثم ما لبث ان عاد وعلى ذراعه المعطف واقترب كثيراً من إلفي قبل أن تحتويها طياته المخملية ذات لون السماء بعد الغروب والمزين بالفرو الناعم من الياقة حتى الحاشية .

رفع الشاب الياقة حول عنق إلفي وأخذ يتفحصها بعينيه اللوزيتين اللتين تعطيانه هيئة رجل شرقي أو روسي اذ كانت تشك في انه ايطالي . وبالمقارنة تجد أن لزوجها جاذبية ايطالية صارخة بينما جاذبية هذا الرجل فطرية تذكرها بموسيقى بورودين وخيول سهول روسيا البرية .

- انك جميلة في هذا المعطف يا سنيورا .

تكلم بأدب ولكن نظرة عينيه جعلتها تجفل منه . قالت اداليا :

- سيعجب روداري بهذا اللباس . خذيه يا عزيزتي وخذي معه هذا القماش الفضي النقي الطراز كي يبرز محاسن المعطف . انه طقم متكامل للأوبرا .

- أو لحفلة باليه (قال راف بصوت خافت .) في مقصورة فوق المسرح مع وردة واحدة فقط مغروزة في المعطف .

كانت اداليا قد انشغلت مع اثنتين من الخياطات وتكلم راف بصوت هامس متقصداً الا يسمعه احد غير إلفي .

- كفى !

انتهرته بصوت منخفض وقد هالها هذا الرجل بمغازلتها بهذه الطريقة .

- هل استطيع ان البس يا اداليا ؟

أبقت جسمها ملفوفاً بالمعطف بعدما أحست بأن راف لمسها . وتصوّرت ثورة زوجها لو يعرف بذلك واللطمات التي سيكيلها لهذا الرجل السافل . ومن المخزي حقاً أن يكون رجل كهذا في عالم يتعلق بسرية مطلقة تخص النساء وحدهن .

- نعم يا فتاتي . وبفضل صبرك جعلنا منك نموذجاً صالحاً . وسيرافقك راف لتتعرفي على مصمم شعر النساء واود ان تأتي يوماً ما في الاسبوع - طبعاً باذن من عريسك - ليناسق تسريحة شعرك مع ثيابك الجديدة . في هذه الأثناء البسي الطقم الكرزي لأنه جاهز للاستعمال .

تناولت إلفي الفستان ودخلت خدراً صغيراً مفصولاً عن القاعة بستائر وبعدما لبسته ورأت نفسها في المرآة اعجبت برونقه البهيج والأنيق ، ولكنها تضايقت جداً بسبب سعره المرتفع . ورغم ان زوجها يتقاضى دخلاً مرتفعاً كيف يمكنها ان تستغل اكثر من عشرة أثواب للنهار ونصف هذا العدد للسهرات وغير ذلك من مختلف الألبسة للسباحة وللغولف وللمقاهي والتياترو ؟ ومن المثير أن يجهزها زوجها بكل تلك الأشياء المحببة بالاضافة الى الأحذية والحقائب والقفازات والمجوهرات . ولكن هل ستلبس كل هذه المشتريات ومتى ؟

خرجت من الخدر لتجد نفسها تقريباً بين ذراعي راف ستيفانو . ضحك ودعاها لدخول المصعد الذي أسرع بهما نزولاً الى الطابق

الأسفل . قال راف :

- من النساء من لا يليق بهن حتى أفضل التصاميم وينهب القماش الثمين ضياعاً . اسمحي لي أن اقول يا سنيورا إلفي ان لك جسماً كاملاً يتناسق وتصاميمي ، وأحدها ذلك الطقم . فقد تعمدت الخطأ في قياساته لئلا تنعم به سيدة لا تستحقه كأن حساً انبأني بانك ستظهرين يوماً وينطبق الطقم على مقاسك .

رمته بنظرة صارمة لأنها ارتابت بلهجة ساخرة في كلامه :

- انا ممتنة جداً لصنيع زوجي وكرمه .

- باعتقادي انه هو الذي يجب أن يكون الممتن . السحر موجود في كثير من النساء لكنه مصطنع خاصة في مجتمعات روما . اتى بك الى روما كزهرة جميلة التقطها في طريقه . اشك في أن تكون روما مكاناً يليق بك .

- ارجو أن تليق بي اذ اتيت لأعيش فيها .

توقف المصعد ولمس ذراعها بحجة انه يدلها على الطريق :

- من هنا . يحمل زوجك اسماً لامعاً يا سنيورا .

- هل تظن ان هذا هو سبب زواجي منه ؟

- انت ؟ (ضحك ضحكة ماكرة ، ثم اضاف) عليك قبل كل شيء أن تحبي الرجل وهذا فكر الناس عندما يرونك في رفقته فانهم يكوّنون رأياً أكيداً بانك باحثة عن الذهب .

- وأنت ، ماذا تفكر يا سنيور ؟

- انك مثل ريا التي تاهت في الغابة والتقت بمارس رمز الحرب عند الرومان .

- هذا سخيف .

- يسخر الناس من شيء لأنهم لا يستطيعون مواجهة الحقيقة . ها قد وصلنا .

توقف عند مكتب الاستقبال في صالون التجميل وطلب تعيين موعد للسنيورا فورتوناتو . وسجل الموعد ليوم الخميس ، الساعة الحادية عشرة . وعندما خرجا من هناك نظرت إلفي اليه نظرة ساخرة وقالت ساخطة بعض الشيء :

- الرجال الايطاليون ينزعون الى السيطرة !

- انا نصف ايطالي .
مال بعينيه اللوزيتين وهو يبتسم فبدا صبيانياً ولكن حكيماً في الأمور الدنيوية . وأردف يقول :
- والدتي من بافاريا وهي جزء من المانيا حيث العادات والتقاليد الرائعة ، وكانت غجرية اكثر منها المانية وانا اشبهها في بعض الأشياء . هل أبدو غجرياً ؟
- نعم . واتصوّر قرطين متدليين من اذنيك .
ثم حوّلت إلفي نظرها عنه واتخذت هيئة عدم المبالاة . انه جذاب خبيث يجب تجنب الارتباط بأي صداقة معه وهو من النوع الذي يحب النساء والنساء يحببنه . نصحها روداري بأن تقيم صداقات لها في روما ولكنها لا تظن انه عنى صداقات مع أشكال راف سيفانو .
- لقد حان موعد الغداء . لن يتأخر زوجي . . . اوه ، اذكر الذئب . . . !
ضحك راف عندما رأى شخصاً طويل القامة قادماً نحوهما بخطى واسعة كله حيوية ونشاط يتقلص امامه أي رجل آخر . قال راف :
- انا منصرف . . . الى اللقاء يوم الخميس .
ليتها استطاعت أن ترد عليه رافضة لتعلمه بلهجة خاصة انه لا يجب أن يعتمد على أي رغبة عندها لمصادقته ولكن المصعد كان قد احتواه تماماً عندما اصبح روداري بجانبها .
- حسناً . اراك جاهزة تنتظرينني !
ابتسمت رغما له او اعجاباً ببزته الرمادية وقالت :
- نعم . اني متشوقة لأتعرف على هلين .
- شيء ممتاز . وانا متأكد من أن هلين تتوق لمقابلتك . . . لا تنفك تقول اني لن اجد انساناً يتحمل استبدادي .
كان يتكلم ونظره يتبع المصعد المذهب الذي اختفى فيه راف كالعفريت .
- من هذا الشاب صاحب بنطلون الباليه والقميص البني ؟
- مساعد اداليا . هو الذي صمم الطقم الذي عليّ . هل اعجبك ؟
- جداً يا عزيزتي . انت منسجمة تمام الانسجام مع الزي واللون حتى

ليخيّل لي انه يملك حاسة خاصة ببعد النظر .
خرجا في شمس روما وتأبط روداري ذراع زوجته واتجها الى موقف السيارات . وكانت لمسته ترسل سهاماً ناعمة في جسمها واستسلاماً لعواطفها نحوه بالرغم من الشكوك المؤلمة التي عاودتها بصدده .
مع من أتى الى هذه المؤسسة من قبل ؟ مع كاميلا أو مع الفتاة التي عادت الى الجزيرة تتبعها حقائب من الثياب الجديدة ؟
فتح لها باب سيارته السوداء وبعدما دخلت جلس خلف المقود وأشعل محرك السيارة وبدا كل شيء عادياً ظاهراً بقدر ما كان مشوّشاً باطناً .
- ضعي يدك في جيبي . . . اشتريت لك شيئاً ولو تافهاً لتتباهي به امام شقيقتي المشوقة .
ادخلت يدها في جيبه محاولة الا تحتك بجسمه وأخرجت علبة صغيرة بحذر شديد كمن يتخوف من الاحتراق .
- افتحيها لن تجدي افعى في داخلها .
وجدت فيها اسوارة من ذهب ، ناعمة مع قلب من الياقوت معلق بها . اراد هذه الحلية لها ليبهجها وليعطي شقيقته انطباعاً بانه يحب عروسه ويقدم لها تواله جميلة مثل هذه .

- انها جميلة جداً . شكراً يا روداري .
ارتعشت اصابعها وهي تضع الأسوارة حول معصمها وقد لفت نظرها قلب صغير معلق فيها .
- سحرك يا حلوتي هو انك تظلين ابداً لطيفة معي ومهذبة ومتحفظة تقريباً كما لو انك نسيت اني احتويتك بين ذراعي الليلة الماضية !
- وهل هذه الأسوارة مكافأة على ذلك ؟
لم يجب على سؤالها وكان الصمت ثقيلاً بينهما ولما تجرأت ونظرت اليه رأت فيه ملامح متصلبة غاضبة .
- اني لأتساءل ايتها الصبية الساذجة اذا كنت تتجاسرين على قول شيء مثل هذا لو لم تكن في سيارة في شارع مزدحم . هل تتجاسرين ؟
- اعتقد اني لا اشعر بالرعب منك .
- احياناً اسائل نفسي ما اذا كنت تعرفين شيئاً عن شعورك نحوي .
اقتربا من حدائق ابولو ودخل روداري بسيارته من بوابتها الكبيرة .

٦ - عقدة اللسان

انعطف بسيارته حول أشجار مزهرة ونباتات زاهية ومر امام القناء حيث جلس الناس الى موائد الطعام يأكلون في أفياء المظلات الشمسية . ترك سيارته في باحة قرب منصة الموسيقيين وتوجها الى حيث حجزت هلين مائدة للثلاثة .

تنشقت إلفي هواء الأزهار العطر ولست البوغنفيلية المعرشة ولكنها كانت متوترة الأعصاب قليلاً توقعاً لمواجهة سلفتها هلين لأول مرة . هل يا ترى تشبه أخاها روداري ؟

- ها هي هلين !

انتصبت الفتاة التي كانت تنتظرهما بالقرب من احدى الموائد وابتسمت ابتسامة خجلة ، كأنها غير واثقة من نفسها في لحظة التقاء زوجة شقيقها . ومما لا شك فيه انها قابلت في الماضي بعضاً من نساء حياة روداري الرومانطيقية ، وستصيبها الدهشة لدى تعرفها الى المرأة التي اختارها اخوها زوجة له .

بالفعل ، رأت الدهشة تملأ عيني هلين التي اصابتها شبه صدمة عندما وقع نظرها عليها لأول مرة ، وهذا ليس اطراء ولكن إلفي حاولت أن تتجاهل ذلك عندما قدمها زوجها لهلين كيافاري رسمياً . وجدت في هلين جاذبية ولكن بدون جمال ، وكان فستانها بنفسجياً باهتاً وعلى رأسها قبعة من القش ولها عينان جميلتان لامعتان عميقتا النظر كما يجب أن تكون عينا الفتاة الايطالية الحقيقية . قالت هلين :

- كم كنت انتظر هذا اللقاء يا إلفي وكم تساءلت عن شكلك وكوّنت

صوراً لك في ذهني . لكن الواقع اجمل بكثير من الصورة التي تخيلتها .

- يا للسماء (قال روداري مبتسماً ابتسامة عريضة وشيطانية) هل توافقين على اختياري للعروس ؟ اني واثق من ان الجدة نبهتك الى انني تزوجت ربما من نجمة سينمائية صغيرة !

قالت هلين :

- ارجوك . دعنا من النقاش اليوم . فلن نتفق ابداً بصدد جدتنا ولذا من الأفضل الا نتكلم عنها . لنجلس الآن ونستمتع بالجو .

- كما تريدين (ابتسم بحنو وانحنى وقبّل اخته على وجنتها) مظهرك جذاب يا هلين ولكنك شاحبة . وأقترح عليك مرافقة إلفي في جولة لزيارة صالات العرض الفنية في روما وينابيعها الرخامية والآثار القديمة . ولم لا تذهبان الى لازيو للاستحمام ؟

ابتسمت هلين لإلفي وقالت :

- سيسعدني ذلك . لا تعرفين روما طبعاً .

- انا غريبة عن روما ولكني مغرمة بها . احب ان ازور كاتدرائية القديس بطرس .

- سنعين مواعيد للقيام بذلك . انا مشغولة بأعمالي الاجتماعية يومي الاثنين والأربعاء ، وحرّة في غير هذين اليومين الا اذا طلبت مني جدتي أن اقوم بالتسوّق أو ان ارافقها الى مكان ما . ومن المتوقع أن ينشغل اخي بفيلمه الجديد .

- سيسرني كثيراً اذا تصادقتما . . . هل ترغبان في بعض المقبلات قبل أن نختار طعامنا ؟

داخل إلفي ارتياح وسرّها أن هلين ليست من ذوات الجمال المتعاليات . فقد وجدتها هادئة ورصينة ولون ثوبها البنفسجي دليل على انها ما زالت في حداد على زوجها . ونظرت إلفي خلسة الى هلين ثم الى روداري واستوقف انتباهها مظهرهما الارستوقراطي الروماني الجلي . وسرّت لأن زوجها اشترى لها هذا الطقم الكرزي اللون ، اذ من المهم أن تبدو أنيقة في وقفته وأن تكون معنوياتها مرتفعة . سألت هلين عندما وصلت صحون المقبلات :

- وما رأيك في روما الجميلة ؟ انا اعرف ان روداري اختار السكن في

القصر بسبب المنظر الجميل من مرتفعاته .

ـ انه مشهد اخاذ .

تعلم انها بموافقتها هذه استدرجت ابتسامة ونظرة من زوجها الذي لا شك انه تذكر غضبها منه لهجره اياها ليلة امس وحيدة على شرفة تتطلع الى آلاف الأضواء تحت قدميها .

ـ هل تشعرين كغريبة في روما بانك اكثر حيوية مما كنت عليه سابقاً ؟ اعرف ان هناك مدناً اخرى مثيرة ولكن لروما قلباً ينبض بالحرارة وجاذبية تؤثر في الاحساسات . . . هل انت من هذا الرأي ؟

لم تجب إلفي بل نظرت الى صحنها . وتحرك في قلبها وعي جديد وهو انها تتعلم تدريجياً معنى كونها زوجة لرجل يغلي حيوية وعاطفة وانها تتعلم ذلك في مدينة الحب . . . الحب الحسي والحب العذري . مدينة القباب والأبراج التي ترمز الى الحب الدنيوي والحب السماوي . كل شيء فيها يعبث بالاحساسات كما يعبث ماء الينابيع بالحجر . وهنا تتأجج العيون السمراء ناراً اكثر من العيون الزرقاء في بلادها . دققت نظرها في عيني زوجها السوداوين وهو يقدم لها قائمة الطعام وقال :

ـ اختاري غداءك بنفسك . هكذا تتدربين على قراءة الايطالية .

ـ هل تتعلمين لغتنا (سألتها هلين) اختياراً منك ام لأنه يضايقك ؟

ـ قولي لهلين اني لا اضايقك . عندها وسواس اني بحكم طبيعتي زوج رهيب . . . ابحثي عن كدمات في جسمها يا هلين ولكنك لن تجدي الكثير منها .

شدت إلفي على اسنانها لأنها تذكرت كدمة او كدمتين . آه الرجال ! انهم لا يدرون متى يؤذون امرأة في جسمها أو في عقلها . يظنون أن العذاب هو في آلات التعذيب فقط بينما هو في الشك . . . ذلك الشك الذي بدأ ينخر فيها مع شبح طفل بعينين ايطاليتين حقيقتين ورؤية جهازه المطرز بحرف (ر) .

حولت نظرها عنه الى قائمة الطعام وقالت :

ـ اظن اني سأتناول دجاجاً متبلاً وبعض قرون الفلفل .

قالت هلين :

ـ هل هذا تقارب في الأفكار ؟

ـ ربما . . . ولكن أول شيء اتناوله هو البطيخ الأحمر .

أحست بساق روداري تلتصق بساقها ولكنها تجاهلته وأضافت :

ـ هل تتذكر البطيخة التي اكلناها في طريقنا الى الجزيرة ؟ ولكن ، كلا . افضل صحن حساء كثيف .

ـ البطيخة ارطب .

دل صوت روداري على شيء من البرود كأن تغيير رأيها المفاجيء ذكّره بالجزيرة وأسرارها .

ـ . . . احب الحساء .

ـ اذن اطلبي الحساء .

هز كتفيه وتحوّل الى هلين :

ـ يبدو لي انك تعيشين على رشفات من العسل والأعمال الانسانية يا صديقتي . ما قولك في بيتزا كتلك التي كانت تطعمنا اياها ماريا في الجزيرة ونحن صغار ؟ كانت تأتينا بها في عربة الخضار اتتذكرين ؟ وكانت الكونتيسة تقسم جازمة انها رائعة .

ـ كانت تقرأ البخت . وقالت لي وأنا في الثانية عشرة انني سأتزوج مرّتين ولكنها اخطأت بنبوءتها . ولن اتزوج مرة ثانية ابداً .

كان روداري يتفحص اسماء الأطباق في القائمة وسأل هلين عرضاً :

ـ هل تلتقين بالاميركي الطيّار لدى شركة الخطوط الجوية الايطالية ؟ اتذكر انه استأجر الفيلا الصغيرة على أرضنا خارج روما ودهنها في أوقات فراغه .

أخذت هلين تلعب بخواتمها ولم تلحظ إلفي عينيها بسبب حرف قبعتها المتدلي .

ـ يسميه اصدقاؤه الايطاليون غويدو ، اما اسمه الحقيقي فهو غاي ستايسي . ما زال يسكن الفيلا ويقيم الحفلات ويرسل لي دعوات ولكنني لا اذهب ابداً . ما الفائدة من ذلك فأنا لا اميل الى الرجال . انا من آل فورتوناتو ونحن نحب مرة واحدة فقط . . . هذا في دمنا !

ـ ستفيقين يوماً وتجدين نفسك وحيدة اذا ما حدث شيء للكونتيسة انها تتقدم في السن وتستعمل العصا الآن لتتنقل .

ـ وعصا مقبضها لؤلؤة .

- انها عنيدة .

- أولست عنيداً يا روداري ؟ انت تشبه الكونتيسة اكثر مما اشبهها انا . ولهذا دائماً تشاكس في اجتماعاتك . افضل أن يتزوج الانسان شخصاً مزاجه يعاكس مزاج الآخر اذا ارادا أن يعيشا بانسجام . من لا يلاحظ ان مزاج إلفي معاكس تماماً لمزاجك ؟

- هل تعتقدين باني تزوجت بحثاً عن الانسجام ؟

- ايا كانت اسبابك يا صديقي ، فأنا مسرورة الآن بالتعرّف الى زوجتك .

ونظرت الى إلفي وأردفت :

- ارجو الا تستفقدك عائلتك في انكلترا .

- لا اهل لي ، وهذا ما دفعني للمجيء والعمل في ايطاليا . وقلت لنفسي ان السفر يصقل العقل .

- اعتقد بأن لك عقلا واسعاً جداً (قالت هلين مبتسمة) بزواجك من رجل مثل اخي .

كان روداري في تلك الأثناء منشغلاً مع خادم المطعم وتابعت هلين كلامها :

- احياناً يثير غضبك كما يسحرك بلطفه احياناً اخرى . الرجال الايطاليون اعذب رجال في العالم ويجيدون الغناء ايضاً . هل سمعت صوت روداري ؟

- فقط في غرفة الحمام (قالت مبتسمة) يظهر انه يحب لا دونا اي موبلي لجيوسبي فردي .

- يجب أن يأخذك الى الأوبرا . انتهى الموسم الآن لكن هناك احتفالات تقام ليلاً في الهواء الطلق في حمامات كركلا . لا شيء تقريباً يفوقها روعة . يجب أن ترافق زوجتك يا روداري لترى وتسمع الأوبرات الايطالية الأصلية .

- في نيتي ان اجعلها تحب كل ما هو ايطالي .

كان يتذوق بتلذذ الرز بالفطر والزعفران وهو يتكلم عن موسيقى فردي وبوتشيني التي يفضلها على غيرها لغناها واتساق انغامها . وتحوّل من الحديث عن زواجه الذي يبدو انه سئم من موضوعه الى جوّ جعله يطلق

السهولة مرحاً وحلواً وبعد تناول القهوة نهض الثلاثة ومشوا في انحاء حدائق ابولو .

الحدائق جميلة جداً وفيها كهوف طبيعية وبرك ماء تظللها نباتات مزهرة ، ومشوا في ممر واسع تعرشه اشجار سرو وارفة حتى وصلوا الى جسر مقوس من الحجر الأسمر المصفر اكل عليه الدهر وشرب . . . وواصلوا سيرهم الى ان توقفوا امام معبد توسكاني قديم قائم بين مختلف شجيرات الكاميليا الحمراء والقرنفليات البرية الزهرية منها والبيضاء .

تأثرت إلفي باختلاط الألوان وهمس لها قلبها بأن هذا مكان مثالي للعشاق . ولكنها جفلت عندما لمسها روداري واضعاً اصابعه السمراء على فستانها الكرزي اللون . . . ورغم خفة لمسته نفذت الى جسمها كالبرق . تمكنت هذه اللمسة منها وذكرتها بانها له رغم ارادتها في المقاومة لتفهمه انها ليست شيئاً يمتلكه كاحدى الدمى .

أفلتت منه وركضت داخل الآثار مقتحمة نسيج العنكبوت الذي كان يعارض المدخل ، فأزاحته عن وجهها بيدها ورأت العنكبوت يختفي خلف احد الرسوم الجصية . ولاحظت ان المدخل تعتم ، فاستدارت ورأت روداري واقفاً امامها فلا مهرب منه . . . لا مهرب من الحب الذي سيكره على تقديمه لشخص آخر . بقي كل منهما بدون حراك بضع لحظات ثم تقدم روداري نحوها كأنه تمثال ابولو دخلته الحياة وراح يطاردها داخل الآثار .

- انت تعذبينني (قال وهو يشدها من كتفيها) منظرك يغريني ثم تهربين مني . ارى الخوف في عينيك وأريد أن اعرف سببه . اقدّم لك كل شيء . أعرفك على اناس ستحبينهم . احاول أن اعاملك بلطف وبالحسنى . ماذا تريدين اكثر من ذلك ؟

- ارجوك . لنخرج من هنا . ستتساءل هلين . . .

- انا الذي اتساءل (اجبرها على النظر في عينيه) هل انت حلوة وهادئة وبريئة ام مخادعة ؟ هل تبدو عيناك الرماديتان صافيتين لأني لا استطيع فهم كنهها ؟ ام تفضلين الاسم والمال على الرجل الذي تزوجته ؟

- كلا !

- كلا يا عزيزتي . هذا ليس حباً . المرأة التي تحب لا تنكمش بسبب

لسة أو تشحب بسبب قبلة . هذه معضلة لك ! انت مرتبطة حسب الشرع الروماني برجل ترفضين عناقه . هل تصورت حقاً ، انني سأعاملك كابنة لي ؟ لم اصل الى سن الشيخوخة بعد حتى لا اتأثر بمظهرك . لكل هدية اقدمها لك أتوقع مكافأة منك . . . هذه هي اللعبة يا عزيزتي . شئت ام ابيت . . .

- انت وحدك تدير اللعبة ولا اريد ان اكون حجر شطرنج .

- حجر شطرنج ؟

- نعم . لكي تنتقم من جدتك . . . ولتلك المرأة المدعوة كاميلا . قيل لي انها في منتهى الجمال ، ولذا تزوجتني لتبرهن انها ليست الوحيدة واني لست بديلة عنها .

- انا اكره البديلات (قال بجدية صارمة) وفي كل حال انت نقيض كاميلا في كل شيء . انت شقراء وهي سمراء . انت متواضعة وهي واثقة من نفسها . انت نزيهة وهي ماكرة . . . وهي من الجمالات التي جملها بالمساحيق امهر المصورين وصوّروها . فاذا اردت تصريحاً بذلك ها هو التصريح الذي تريدين .

- انا اسفة يا روداري .

وانسلت من امامه وخرجت الى الشمس الساطعة حيث كانت هلين تمتع النظر في الكاميليا القرمزية وهي تدخن سيكارة . ابتسمت لالفي ولكن هذه اعتبرت الابتسامة نوعاً من انشغال البال . هل سمعت ما دار بينها وبين روداري ؟ قالت هلين :

- ارى ان الكاميليا اصطناعية .

اتجهوا الى موقف السيارات وأوصل روداري شقيقته الى الدائرة الاجتماعية حيث تعمل . واتفقت وهي في طريقها الى مكتبها ان تلتقي بالفي في اليوم التالي لزيارة بعض الصالات الفنية ولحضور حفلة كوكتيل يقيمها بعض الأصدقاء .

- الديك أي مانع يا داري ؟

داري . . . اسم مصغر لروداري ، اسم تحبب وتدليل . احست بطعنة حسد . كم ودت لو تعرفت عليه قبل أن يلتقي بكاميلا ويقع في حبها .

- لا مانع ابداً . يسيئني ان تكون إلفي وحدها وأنا غاطس في الستوديو . ولكن سيختلف الأمر متى باشرت روايتي الجديدة . عندها سأعمل في المنزل .

- ما موضوع الكتاب ؟

- الرجال والنساء . حبهم وكرههم . ليس أروع من التلاعب بالعواطف ومعالجتها .

- ارجو يا داري ان تحصر تلاعبك بالخيال فقط .

- ماذا تعنين بقولك هذا ؟

- سألتني عن غويدو ستايسي ، وأظن انك ترغب في الارتباط به . . . بطريقة شريفة طبعاً .

- انت شابة يا هلين وجذابة ايضاً . لا يمكنك الاستمرار في العيش مع حب ميت .

- اشك في امكانية الحياة مع شخص لا احبه . سيكون ذلك رهيباً لي .

- الوحشة تنتظرك بدون صدر تتكئين عليه وتبكين أو بدون احد تتشاجرين معه . انت شابة في الوقت الحاضر وتشعرين بانك تستطيعين تدبير امورك بنفسك ، ولكن ماذا عن المستقبل عندما تعودين الى بيت خالٍ إلا من خادمة ؟ صحيح ان لك صديقاتك ولكن لهن ازواجهن . . .

- انت عتيق الطراز يا داري ، رجعي من نوع الرجال الاستبداديين الذين يجزمون بأن المرأة بغير الرجل ناقصة . قد تكون كذلك لكنها تختلف عن الرجل في انها لا تجد السعادة خارج الحب ولا الجاذبية والتقارب بدون نوره الساطع .

- حتى النساء يجدن جاذبية وتقارباً خارج الحب . اني اتكلم عن خبرة .

- عندما انظر اليك يا داري ارى انك تعمقت في كل سر يخص المرأة . ومع ذلك ليست كل النساء متشابهات ، ولا أرغب في حب أو زواج قد أندم عليها لاحقاً . سأتدبر امري . . . والجدة متمسكة بالحياة ولن تتركني وحدي الآن .

- نعم . متشبثة بها . من المؤسف ان سابينا ماتت وهي بعد شابة وجميلة .

- ارجوك يا داري . هذا من الماضي البعيد ، وكثيراً ما تعبّر الجدة عن

ندمها على عدم تفهمها للأمور . وهذا ما سبب لها خسارة حبك لها . لماذا لا تنسى الجراح القديمة وتتصادق معها ؟

- يا بنيتي . لو ترغب الكونتيسة في ذلك لماذا تجاهلت عودتي الى روما مع عروسي ؟ فهي لم تتصل تلفونياً أو حتى ترسل كلمة تهنئة ، باقة صغيرة من الأزهار ، تكون دليلاً حسياً على حسن النية . كلا . بل تجاهلتنا وانت تريدين ان أرفع غصن الزيتون ؟

- لكل منكما كبرياؤه المتمادي . . .

دلّت ابتسامة هلين لإلفي انها ساخطة تماماً . ثم قالت لها :

- لا تنسي يا عزيزتي لقاءنا غداً عند نبع تريفون حوالى الساعة الثانية . وآمل انك تحبين مشاهدة اللوحات والنحت ؟

- احب ان أرى كل ما هو روماني .

- الى الغد اذن .

- وداعاً . سررت جداً بالتعرف اليك .

التفتت إلفي ولوّحت بيدها الى هلين الهيفاء التي كانت تسرع على الرصيف المزدحم ثم أسرع روداري بسيارته وظل صامتاً طيلة الوقت حتى وصلا الى البيت . تعتقد إلفي أن غضبه عائد الى الاعتراف الذي انتزعته منه . قد تكون إلفي أي شيء الا كاميلا السمراء الفاتنة الأكيدة من نفسها والحادة الذهن . هذا ما يحب الرجال في المرأة . انهم يستمتعون باثارة المرأة لهم . . . حيل وخدع لا تتعلمها الممرضات اللواتي يعاشرن الآلام في مهنتهن لا فتنة الجمال .

حين دخلا البيت فوجئا بهدية عرس كبيرة مغلفة تغليفاً جيلاً كانت في انتظارهما . تلهفت إلفي لترى البطاقة وقال روداري بجفاء ان البطاقة ربما تكون في الداخل وأفضل شيء لمعرفة هوية المرسل هو فتح الطرد . وأخذ يفتحه وهو يراقب إلفي تقطع الخيط وتخرج الأوراق الى أن وصلت الى العلبة وأخرجتها . قرأ اسم مصنع شهير للزجاج في البندقية ورفعت إلفي نظرها الى زوجها الذي قال بنفاد صبر :

- افتحي العلبة !

- انها من مدينة البندقية .

قالت ذلك بعد تردد بينما كان قلبها يخفق بسرعة .

- هذا واضح . ارفعي غطاءها لنرى محتواها .

نظرت اليه مرة اخرى ثم انحنت وبدأت تفتح العلبة ولكن بدون لهفة . ازالت الورق الحريري وانقطعت انفاسها عندما اخرجت جندولاً من زجاج مصمماً لوضع الفاكهة وعلى كل جانب منه كأس من البلور الصافي له جذع رفيع . وتناولت الغلاف الصغير وأخرجت منه بطاقة . . . وفي الحال عرفت صاحب هذا الخط مع انها رأته مرة واحدة فقط قبل الآن . كان الخط في منتهى الأناقة يتمنى صاحبه لهما زواجاً سعيداً . والبطاقة تحمل توقيعين لا توقيعاً واحداً ، هما السنيور لوشيوس دي مونتيني وزوجته الكونتيسة كاميلا سلفانوس دي مونتيني .

يا لجرأتها الوقحة ، قالت إلفي لنفسها وهي تحملق في البطاقة . ترسل كاميلا هدية من بلوّر لتذكّر عروسه بانها كانت تعرفه قبلها . وهذه خدعة ماكرة للتطفل على حياتها وعلى بيتها . شيء نادر لتذكرهما بجمالها النادر !

ابتعدت إلفي عن الهدية كما لو انها خشيت ان تؤذيها بينما رفع روداري احد الكأسين وبدا كأنه يلاطفه بيده النحيلة كما يلاطف كاميلا ذاتها . قال لإلفي :

- يجب أن تردي عليهما بكلمة شكر . انه لطف من عائلة مونتيني .

- انا موقنة بأن الكونتيسة لم تفكر في شيء آخر !

ادارت له ظهرها وذهبت الى غرفة نومها متخوفة من انه سيلحق بها وسيثير عاصفة ولكنه لم يزعجها . ودخلت الحمام حيث أخذت دوشاً فاتراً وقالت لنفسها غاضبة وهي تحت الماء ، انها ستحطم الهدية لو امكن ذلك وستجنّ اذا اجبرت على قبولها . ولكن رفضها - حتى لو سمح لها روداري بذلك - سيفسّر بأنها تغار من كاميلا .

بلّور لامع يذكر روداري بأشياء لا تعرف إلفي عنها الكثير . ربما احدها رحلات في جندول البندقية .

بدا لها هذا المشهد حياً في مخيلتها واندفعت خارجة من حمامها بحركة عصبية وشعرها مبتل ومتدلّ على كتفيها . ذهبت الى الشرفة وحاولت ألا تنظر الى ديوان الأشعار حيث يوجد الاسم الجميل ولكنها التفتت ورأت الطاولة خالية منه . قد يكون امتكار قد اخذه من هناك فربما يعرف تلك الفترة العذبة التي امضاها روداري مع احدى اجمل نساء المجتمع

الروماني .

جلست إلفي على أحد كراسي الخيزران ذي الشكل المروحي وأسندت رأسها على مخدة . كانت بحاجة قصوى للاستجمام والهدوء والتأمل في واقع زواجها . ليت روداري يطمئنها عن هدية كاميلا ويقول :

- انه من عدم اللياقة أن نعيد هدية كهذه الى اصحابها . . . لكننا سنهبها الى احدى المؤسسات الخيرية .

اغمضت إلفي عينيها وأحست بشمس العصر دافئة على صدرها فغلب عليها النعاس واستسلمت الى نوم خفيف . احساسها تألم كثيراً من واقع زواجها لرجل تعشقه ولا تثق به في آن معاً . والمربك في وضعها انها ستجد نفسها في دوامة علاقات زوجها بعالم عصري كله مداهنة ، حيث اللباقة والكياسة في العلن لها الأسبقية على ايلام الشعور في السر . وان هي انجرفت في غفوة فلأنها تعبت عاطفياً .

أفاقت وهي تشعر بقشعريرة برد وكانت الشمس قد غابت . نهضت عن الكرسي وتمطت ثم دخلت الى غرفتها . كل شيء كان هادئاً مستكيناً الى قيلولة روما في لحظاتها الأخيرة . مشطت شعرها ولمّته خلف رأسها ثم وضعت حمرة شفاه زهرية وشعرت بالارتياح بعد قيلولتها على الشرفة ثم نزلت الى المطبخ لتصنع لنفسها فنجان قهوة .

يسرّها أن امليكار ليس من اولئك الخدم الذين يحتكرون عمل المطبخ لأنفسهم فهو يقول انها السيدة الصغيرة ويسعده جداً أن يعلّمها كيف تجهز أطباق زوجها المفضلة .

المطبخ عصري ولامع وتعجبها رائحة حبات البن المسحوقة والاصغاء الى خرخرة غليان الماء في الابريق وهي تمتص خواص البن كما يعجبها زخرف المطبخ بلونيه الأبيض والأصفر .

أفرغت إلفي القهوة في ابريق من الفخار ففاحت نكهتها الذكية ووضعت على الصينية شيئاً من الكريما والسكر والبسكويت حملتها الى قاعة المكتبة والجلوس ، ودلتها غريزتها وهي في طريقها الى هناك بأن روداري موجود فيها يعمل . وجدت الباب مفتوحاً جزئياً ولما همّت بفتحه سمعت صوت زوجها وجمدتها كلماته في مكانها . ربما كان يتكلم بالتلفون وسمعته يقول بكل وضوح :

- لما طرنا بدافع غريزي الى البندقية أنت عرفت اننا سنصبح عاشقين هناك . وهذا كان محتماً كوجود النجوم وأمواج البحر وبما اننا كنا عشيقين في ذلك الحين لا نستطيع الآن حتى الالتقاء كصديقين وطالما ستكونين في حفلة الرقص الخيرية هذا الصيف سألقاك هناك وسأتعرف عليك مهما تمعنت في التخفي وراء قناعك . . .

لم تطق إلفي البقاء للاستماع الى المزيد من ذلك . عادت راكضة الى المطبخ وبقيت واقفة جامدة تحدق في الجدار . احست بثقل الصينية فوضعتها على الطاولة . اذن كان ذلك في مدينة البندقية حيث احبّ زوجها كاميلا والهدية التي ارسلتها هذه الأخيرة هي لتذكره بحبهما الذي قام هناك بين القصور القائمة في الماء وعلى رنين الأجراس وبين الحمائم . . . وفي سحر بحر البندقية الذي يغمر انعكاس نور القمر في مياهه الخضراء المائلة الى الزرقة !

ابتلعت إلفي ريقاً جافاً وبحركة آلية سكبت لنفسها فنجاناً من القهوة رطّب حلقها ولكن كانت اعصابها متوترة وزاد توترها عندما سمعت وقع اقدام تقترب . ملأ طول روداري مدخل الباب قبل أن يدخل المطبخ .

- هذا حسن وككل بنت عاقلة عملت قهوة وأنا دائماً اتعطش الى شيء منها خاصة اذا كنت اعمل .

جلس بالقرب من الطاولة وسكبت له فنجاناً . وجدت نفسها عاجزة عن الكلام اذ لم يكن هناك ما تتفوه به غير الشعور بالألم والسخط . كانت عيناه منصبتين عليها وهو يرتشف قهوته وكان فيهما بلاهة وخمول معاً كأنه يشارك القطط في ارتخائها وتعبها في الوقت ذاته . يتبيّن للناظر اليه رشاقة الحركة في جسمه وسرعته في الهجوم وجاذبيته القاتلة .

وأخذ يختلس النظر الى الثوب الوردي الملتصق بجسمها الرشيق والذي كان يكشف بشكل ناعم حيوية بعض انحاء جسمها ولكنه لاحظ توتراً لديها وانعزالاً وعلائم حنق . ادعى بأنه كان منهمكاً في عمله طيلة الوقت وليس في مكالمة هاتفية بعيدة مع امرأة لن تتخلى عنه . . . عن الرجل الأسمر الذي عادت ومدت اليه يدين جشعتين تحت غطاء الصداقة مع العلم ان حبها لروداري هو ابعد من ان يكون مجرد صداقة .

زادت حدة حنقها عليه لجرأته على النظر اليها بهذه الطريقة فيما أفكاره

متجهة نحو تلك المرأة التي خطط ان يقابلها من جديد في حفلة الرقص الخيرية التي هي من ابرز اللقاءات الاجتماعية في بداية الصيف حيث يقتنع المدعوون ويمرحون ويلتقي العشاق منهم سرا .

تناول قطعة بسكويت بالشوكولا كان ليس في فكره شيء سوى تسكين جوعه . رفع حاجبه وقال وهو يمضغ البسكويت :

ـ انت بالفعل زوجة شابة تحيرني . فبينما تعملين لي قهوة لذيذة لا تتفوهين بكلمة واحدة هل ما زلت في خصام بسبب هدية العرس ؟ ماذا تريدين أن اعمل بها ؟ اقذف بها من الشرفة لتتحطم على الصخور ؟

ـ هل ستفعل ذلك ؟

ـ اتعتبرينها كؤوساً من السم ؟ لك بعض المسلك الصبياني . ولكن اكراماً لعينيك الرماديتين سأتغاضى عن هفوتك هذه .

ـ اشكرك .

ادارت عينيها لتتجنب ابتسامته . من الصعب التسامح معه ومن المستحيل عليها أن تنسى كيف تصرفت تصرف الأطفال ووثقت فيه واحبت صاحب الوجه الأسمر المدمر معتبرة الزواج به اعجوبة . تزوجها هو بسبب براءة قلبها . كيف سيكون رد الفعل لديه اذا قالت له ان المؤامرة لا تقوم الا على شخصين في أقل تقدير وانه اذا استمر في مقابلة كاميلا لن تظل قابعة في زوايا حياته لابسة السحة التي قدمها لها ليلة زفافهما .

واليوم ، بالذات ، اهداها قلباً من حجر الياقوت وتأملت كثيراً عندما نظرت اليه .

ـ سيكون لك عما قريب مجموعة كبيرة من الياقوت بدءاً من أقراط الاذنين الصغيرة .

ـ اظن ان استمرارك في تقديم الهدايا لي هو تعبير عن اضطراب في ضميرك .

وفي الحال وضعت يدها خلف ظهرها لتخفي عنه الأسوارة ذات القلب المعلق . ألم يقدم لكاميلا قلبه النابض بالدم والشرايين ؟ ما زال جمال كاميلا الخالي من العيوب مالكاً مشاعره وتري إلفي نفسها عاجزة عن منافستها . وليس في مقدورها الا ان تثور داخلياً ولا تدري ما اذا ستتحول الى جليد عندما يلمسها متخيلاً انه يحوي كاميلا بين ذراعيه .

ـ تتكلمين عن ضميري . كيف لي أن اعرف الحقيقي من المزيف فيك ؟ ما عليّ الا ان انظر في عينيك فأرى وجهي معكوساً في بؤبؤيك الكبيرين .

نهض وتقدم خطوة نحوها فتراجعت عنه رافعة رأسها الى اعلى مع تصميم في وجهها ووقفت في الطرف الآخر من الطاولة لتعني له رفضها الخضوع اليه . اتخذت من الطاولة ترساً لها اذ لم يمض بعد وقت طويل بين الافصاح عن عشقه لا صداقته لكاميلا وبين تحركه نحوها الآن .

ـ ما عليك الا أن تسأل نفسك يا روداري اذا كنت دائماً تقول الحقيقة لي ام لا !

ـ هل تحبين ذلك . . . اي كل الحقيقة عني ؟

حدقت في عينيه اللامعتين فأحست دقات قلبها كالمطرقة . كلا . . منعها فزعها المفاجىء من الموافقة على كلماته الصارخة في هذه الغرفة . فلن يبقى لها شيء ، حتى ولا بصيص امل اذا وصف بصوته العميق الواثق شعوره نحو تلك المخلوقة الجميلة التي زينها وصورها غيره من الرجال .

ـ انا . . . انا لا اريد ان اسمع !

اختفى الدم من وجهها واصبح بلون الليمون وبرزت ملامحه . وهي تعرف تمام المعرفة ان الحب يكون حقيقياً فقط عندما لا يستطيع المرء تحمله .

ـ شيء واحد لا يمكنك تحمله هو افشائي لمشاعري ، هيه ؟

ـ وفر عليّ ذلك على الأقل .

لملمت شجاعتها كيفما كان الحال واخذت تغسل فناجين القهوة وعلى شفتيها ظل ابتسامة ، كما رتبت المطبخ لتعيد اليه نظافته كما يحتفظ به املكار . وبالرغم من انها سيدة هذه الشقة تشعر نفسها غريبة فيه . نهض روداري وهي منشغلة بتنشيف الفناجين . سمعت وقع خطواته واغلاق الباب . فرمز صوت هذا الاغلاق الى اغلاق قلبه في وجهها .

٧ ـ ظلام آخر النزهة

خرجت إلفي من صالون التزيين وعلى شعرها المتحق اللامع غطاء رأس من المخمل في وضع جانبي . بدا مظهرها في أحسن زيّ ورشاقة كما يجب أن تبدو كل امرأة قلبها مضطرب لا تريد أن تظهر للملأ حالتها النفسية .

عبرت قاعة البهو الكبيرة واقتربت من مدخله الواسع وكانت على وشك أن تشير الى سيارة تاكسي بالتوقف عندما سمعت شخصاً يتكلم خلفها قائلاً :

ـ هل تتلطف السنيورا بقبول التنقل في عربة أكثر اثارة من تاكسي سريع ومزعج ؟ انا اكيد ان السنيورا ليست في عجلة لتعود الى شقة فارغة .

دارت حول نفسها بسرعة ولكنها لم تفاجأ برؤية زوج من العيون يشبه عيني البط المرقش في وجه له سحر مضحك .

ـ راف . . . انت !

ـ انا في خدمتك .

وأشار بيده الى الجهة الأخرى من الشارع حيث كانت واقفة عربة ذات حصان واحد تزيّن رأسه بعض الأزهار ويقودها رجل يرتدي سترة زرقاء . اعجبها منظر وسائل التنقل القديمة البهيجة وقالت مبتسمة :

ـ في ظني انك تقصدت انتظاري .

ـ لا انكر ذلك .

ضحك وهو ينظر الى عينيها الواسعتين المتناقضتين بلونها الرمادي مع لون غطاء رأسها الكرزي وهو تناقض جميل ليست إلفي واعية له ، لكنها تخفض عينيها برموشها الناعمة حشمة كلما تطلع رجل الى هاتين العينين

الانكليزيتين النادرتي الوجود في مدينة تعج بالعيون القاتمة والنظرات الجريئة . ابتسمت إلفي وابتسمت معها عيناها لراف ستيفانو الذي بدا جذاباً بسترته البنية والسوداء فوق بنطلون ضيق وكنزة ليمونية بياقة مرتفعة ضيقة وبشعره المشعث ذي اللون الأسود المشوب بخطوط بنية والذي يختلف عن شعر روداري القاتم السواد . وعند تذكر زوجها تولاها الفزع لبرهة وجيزة وفكرت في أن تسرع بالابتعاد عن نظرات راف الجشعة اذ شكّت في انه فطن لوضعها المقلقل في الحياة الزوجية واستغل الشمس المشرقة عارضاً عليها متعة التجوّل في عربة خيل . فقالت له :

ـ بالرغم عما يمكن ان تتصوره، انا في عجلة من امري لأعود الى البيت .

ـ لا اعتقد ذلك . وصلت اداليا مكالمة هاتفية من الستوديو تطلب منها ان تصمم ثياب الفيلم الجديد . وكانت المكالمة من زوجك الذي تناديه باسم داري وهذا يعني تصغيره . . . بالنسبة اليّ هناك عاطفة قائمة بينه وبين من يعرفونه بهذا الاسم !

ـ ولكن عليّ تحضير وجبة غدائه .

ـ هل خادمك الأمين في اجازة ؟

ـ أنت شخص وقح جداً !

ـ كلا . انا فقط رجل يجب ان يرافقك في جولة وقد يعرض عليك في نهايتها أن تتناولي غداءك معه . نيتي حسنة .

ـ انك حيوان في شكل انسان يا سنيور .

ـ اؤكد لك ان المظاهر خداعة احياناً . لك مظهر فتاة يربكها العالم ومع ذلك فأنت عروس روداري فورتوناتو .

ـ تقول ذلك وكأن روداري لا يتزوج الا بامرأة متكلفة .

ـ يعرف المجتمع الروماني اذواق زوجك في النساء . فهل من المستغرب أن تسري الأقاويل عن عروسه ؟

ـ وأنت ، ما هي أقاويلك يا سنيور ؟ ام تحكم عليّ بعد بأني انتهازية استغلت مهنة التمريض لتغوي رجلاً رومانياً شهيراً بثرائه لعقد قرانه عليها ؟

بانت اسنانه عن ابتسامة عابرة وقلّب بنظره غطاء الرأس الكرزي المثبت في شعرها البني الذهبي وقال :

- تشبهين يوماً هادئاً قد يتحول فجأة الى يوم عاصف . . . وقعنا على غطاء الرأس هذا بعد أن تركت محلنا وأرسلته الى صالون التزيين هذا الصباح آملاً في أن تلبسيه . انه منسجم تماماً مع ثوبك .
- شكراً .
سارت الى جانبه واجتازا الشارع في اتجاه العربة . وهكذا التزمت بركوب العربة وبتناول الغداء الذي رتب له سلفاً . وما ان وصلا الى منتصف الشارع حتى داهمتها سيارة مسرعة وأسرع راف بحركة آلية في اجتذاب إلفي اليه من مرفقها . شعرت بقوة جسمه النحيل وجاذبيته ووعت تفهمه للمرأة اذا ضلت طريقها . فهو لا يطلب من المرأة أن تكون ملاكاً ولا يتوقع ذلك منها . ومن جهتها فانها تطمئن اليه وتخشاه في الوقت ذاته . واما هو فليس ملحاحاً ولكنه قد يحاول تطوير هذه الصداقة لصالحه .
نظرت اليه عندما وصلا الرصيف وفكرت في تركه قبل بلوغ العربة ولكن عزمها هذا مات في مهده عندما رفع الحصان رأسه المزيّن بالأزهار وسمعت طنين أجراسه . هل من ضرر في جولة في العربة ؟ وكأنما توقعت أن يحدث ذلك عندما ارتدت فستاناً صيفياً بلون الكريم مقعاً بالأزهار الحمراء كانت قد اشترته السنة الماضية في لندن بسعر زهيد . وشعرت وهي تضعه على جسمها بانها عادت نفسها كما قبل زواجها من رجل لا يمكن التنبؤ عن عمق طبيعته وعما قد يفعله في أية لحظة . فأحياناً يغرقها في الشكوك وأحياناً اخرى يفزعها بتيارات الشجار ومرة يستحوذ عليها بسحره وأخرى يذيقها مرّ العذاب .
كانت قبل زواجها ترى الحب عند الغير غير معقد ، كما رأت بعض صديقات لها من الممرضات يتعرفن على شباب مخلصين ويتزوجنهم بدون أن يتسببوا في ازعاج حياتهم الزوجية على الأقل .
- ادخلي العربة . . . هل تسمحين لي بأن ادعوك إلفي ولو ليومنا هذا فقط ؟ وأعدك بانك ستجدينني في منتهى التحفظ اذا وجدنا بين جماعة فأناديك عندئذ بلقب زوجك .
التقت عيناها بعيني راف وهو يساعدها على دخول العربة التي وجدت مقاعدها مريحة رغم قدمها . ولم يغب عنها انه يمازحها ويتلهى بتحفظها

الانكليزي وبشعورها بالذنب لوجودها معه وهي الفتاة المتزوجة من رجل يغار على اسمه لا على حبها . قالت إلفي بجدية :
- من السخف أن يكون الانسان رسمياً مع صديق .
ضحك وقفز الى العربة وجلس بجانبها . وجّه كلمة بالايطالية الى الحوذي ورفع هذا سوطه وأطلق العنان لحصانه . كانت تسمع حوافر الحصان في معمعة السيارات والدراجات النارية التي تهدر من حولها كالنحل الغاضب . اقتربا من عين تريفي بتماثيلها الجميلة ومائها المتساقط فوق تماثيل الحوريات .
- هل زرت هذه العين وقذفت فيها بقطعة نقدية ؟
- اعتقدت بأن السياح فقط هم الذين يقذفون بالقطعة في العين .
كانت إلفي وهما يدوران حول العين تراقب الناس ورأت بعضهم ينحني الى الأمام ليروا سقوط القطع في الماء ومن بينهم اثنان متشابكا الأيدي ربما كانا في شهر العسل ويأملان في أن يعودا يوماً ما الى مدينة الحب .
- ربما نسيت يا راف اني اتيت هنا لأبقى .
- صحيح ، ولكن الرومانيين انفسهم يؤمنون بالخرافات . يأتون الى العين ويرمون بقطعة نقود لاسترضاء القوى الخارقة قبل كل رحلة ينوون القيام بها .
- هذه القوى الخارقة جشعة . . . الا تمنح رغبة بدون مقابل ؟
- لكل شيء مقابل بطريقة أو اخرى .
- انظر يا راف (اشارت بيدها الى السماء) السماء صافية .
- الى حين فقط ، وعندما تمطر السماء ينهمر المطر في شلالات صغيرة من كل سقف مائل ويرح فتحيا ينابيع روما الصغيرة .
- تروق لي الأيام الممطرة هنا .
- ولكن البلل يصيب كل واحد منا .
- وفر عليّ يا راف طريقة تفكيرك اللاتينية المنطقية ! كنت اعتقد بأن الايطاليين هم أكبر الرومانطيقيين في العالم بآثاراتهم القديمة وأنغامهم ونباتاتهم المزهرة ناهيك عن وجوه فتياتهم التي تراها في كل مكان .
- فقط الفتاة الانكليزية تتكلم هكذا . اما النساء الايطاليات فهن طاهيات ماهرات . ويعطين المعكرونة نكهة لذيذة جداً ، بخلاف الفتاة

الانكليزية التي وحدها تتميّز باللون السماوي في عينيها .

لم تعلق إلفي على ذلك بشيء بل تلهت بالنظر الى الريف الايطالي حيث كانت عربتهما تسير على مهل . وبعد برهة سألته بلطف :

ـ الى أين نحن ذاهبان ؟

ـ الى الشاطىء على بعد بضعة أميال حيث يوجد مطعم قديم قائم على جانب التل وسننزل بعد ذلك الى الشاطىء . . .

ـ الا يتوّجب عليك أن تعود الى العمل ؟

ـ لدي كل الوقت بعد أن اخذت اجازة نصف نهار .

ـ ارجو يا راف انك لا تظن بأن لي . . . رغبة في علاقة معك . . .

ـ هل تعتقدين باني اقيم علاقات مع كل فتاة اصطحبها لتناول الغداء معي ؟

تناول يدها ورفعها برفق ، ثم أردف قائلاً :

ـ هل تخشين من أن يصفعني زوجك لأني دعوت زوجته الشابة الى الغداء؟

ـ يجب أن يكون هذا اليوم . . . طاهراً بيننا . اني احبه يا راف .

ـ عند النساء اللواتي يحببن ازواجهن كبير .

ـ لا تتكلم بسخرية كأنك تمضي أوقات فراغك في اغراء الزوجات . سأطلب من السائق أن يعود بي .

ـ دفعت له اجراً كاملاً . وقد تجدين الحوذيين الايطاليين عنيدين .

ـ والنساء الانكليزيات لسن أقل عناداً .

ـ عنيدات وساحرات تحميهن طيبة قلبهن . صدقيني . لي وجه مزيف ، ولكني أقل خبثاً مما يبدو علي .

اقتنعت بكلامه وضحكت . ثم أضاف قائلاً :

ـ حسناً . استرخي واستمتعي بيومك . انظري الى صفاء السماء وانظري الى تلك الظبية التي تركض مبتهجة بهذا الصيف .

وانطلق يغني بالايطالية وهما ما زالا على الطريق البرّي . مرّا بقرية لبيوتها طابع شرقي ولون ابيض وعبرا شوارعها الضيقة حتى وصلا ساحة السوق . ومن القرية عبرا مزارع زيتون اشجارها قديمة ومعوّجة ورهيبة المنظر ترمز الى عناد اهل الريف الذين يكدّون ليل نهار لاستخلاص لقمة

العيش من أرضهم .

تنشقت إلفي روائح البر الايطالي الذي يختلف كثيراً عن مروج بلدها الوافرة الاخضرار . الشمس هنا اكثر دفئاً وأريج الأرض اكثر طيبة والعصافير أشبه بصقور صغيرة تنقض على الفاكهة الناضجة . قال راف هامساً :

ـ ما اجمل هذا المنظر !

ـ نعم . وجماله فطري .

ـ انكلترا ليست فطرية على ما اعتقد .

ـ كلا . انها قديمة وحلوة وهادئة خارج المدن . هنا في ايطاليا تظل الحواس متنبهة .

ـ آه ، هذا اعتراف مهم .

ـ لا تسيء تفسير كلامي يا راف ، لم اعنِ بأني اريد أن ابقى . . . رومانطيقية كل الوقت . ما عنيته هو الشكر والامتنان لوجودي حية ومدركة لكياني . هنا يتعلق الانسان بالحياة كمن يتشبث بفاكهة طيبة .

ـ تفاحة ؟

ـ ربما . . .

ضحكت لهذا الحوار وشعرت بتراخٍ في اعصابها بعد التوتر الذي استولى عليها منذ أن بدأ يلاحقها يوم امس . صدقت الحكمة القائلة : « اغلق بابك واحفظ سرك » . لو اغلق ودراي باب مكتبه لما سمعت حديثه التلفوني مع المرأة الأخرى . . . ولكن يجب أن تتوقف عن التفكير في هذا الأمر الذي يوخزها كلما فطنت به .

يجب أن تنسى وتتمتع بهذه النزهة التي تسطع فيها الشمس في كل مكان كانت تبتهج بوجودها على شاطىء البحر وهي صغيرة في انكلترا ، وفي ايطاليا لا يفكر الانسان بالغد قبل أن يأتي الغد اليه .

ـ هذا افضل . فلن تعود شفتاك تتشنجان كلما ابتسمت وأنت متوترة .

ـ لم اعتد على التخفي والتهرب يا راف . كنت ممرضة محبة لعملي .

ـ هل ذكرت الحب ؟

ـ كلا . انك سمعت ما قلت تماماً .

ـ بهذا تعنين انك ستبقين زوجة محبة ، أليس كذلك ؟

- طبعاً .
- لاحظت انه سخي جداً معك .
لمس راف يدها ثانية ودس اصبعه تحت قفازها حيث اسوارتها التي لم تستطع خلعها البارحة . وتذكرت قول روداري وهما يتناولان طعام الفطور بأن الأسوارة ابدية ولن تفك بعد شبكها حول المعصم ، وأكد لها بأنها لا تفقد بريقها ويظل منظرها جميلاً .
- ولكن . . .
شعرت بأن الأسوارة ترمز الى سلسلة الرقيق .
- لكن ماذا يا عزيزتي ؟
ونهض وتركها بعد الفطور متوجهاً الى الاستوديوهات تصورته الآن واقفاً في جو المنزل وأحست بقبلته على يدها وبدفء لمسته وبضغطه على قلب الأسوارة على جلد معصمها .
في هذه الأثناء ازاح راف طرف القفاز ليتأمل في الأسوارة .
- لكن . . . كيف تفكينها ؟
- لا تفك .
- انه لرومانطيقي حقاً أن تحملي قلب زوجك على معصمك وأن تشعري كيف يحرقك في نور الشمس الايطالية . هذه هدية من تقاليد عصر النهضة ، ولكن يبدو روداري كما بدا دانتي أو . . . مكيافلي .
- كفى يا راف !
انتزعت يدها منه وقالت :
- اذا أردت أن نبقى صديقين فاني انبهك باني لن احتمل سماع تلميحات عن زوجي .
- هل فيه كل الصفات المتوجبة في الزوج ؟ لا تغضبي . اعدك باني سأقول ما اريد قوله هذه المرة فقط وهو ان الرجل الذي تحبه المرأة يجب أن يكون صديقاً وسيداً . . . عطوفاً وسوطاً . والآن قولي لي بأني على خطأ وان المرأة لا تريد هذه الصفات .
- طبعاً .
- ابتسمت مرغمة ولكن صورة كاميلا راسخة في ذهنها ولا تستطيع محوها . . . كاميلا المرأة التي اختبرت فرح حب روداري لها حباً عنيفاً

وبهيجا في آن معاً . ثم اضافت قائلة :
- كل امرأة تحلم بحب رائع متعدد الوجوه وأستطيع القول بأن الرجال لا يختلفون في ذلك عن النساء . لكن الحب ليس كالالماس الذي يمكن صقله حتى درجة الكمال .
- او كالياقوت . . . آه ، وصلنا تقريباً . انظري يا إلفي ، لقد اقتربنا من البحر !
كانت بيوت سكان الشواطىء ملتصقة بالمرفأ وبحائط البحر حيث ينحدر الرمل الصدفي حتى يلامس المياه . وهناك حاجز خشبي طوله حوالى نصف ميل يحمي المرفأ من تلاطم الأمواج وعند الحاجز وقرب الأرصفة زوارق صيد بأشرعة متعددة الألوان . وعندما اقتربت العربة من أكواخ السمك وصلت الى انف إلفي رائحة السمك وتابعت العربة سيرها في طريق ضيق ومتعرج صاعدة نحو المطعم . ورافقت العربة في صعودها رائحة البحر والسمك ومالت إلفي الى الأمام تمتع نظرها بمرأى زرقة البحر والأشرعة الملونة وألوان زوارق شباك الصيد الخضراء والقرمزية وبمرأى الرجال الأشداء وهم يخوضون في الماء عائدين وعلى اكتافهم أو رؤوسهم سلال ملأى بالسمك . قالت إلفي :
- مدهش حقاً . حضرت البارحة حفلة كوكتيل مع شقيقة روداري . . . كان كل واحد يرفع حاجبيه بمناسبة أو بغير مناسبة . ورأيت نفسي مثل سندريلا فخشيت أن يتهلهل ثوبي الأنيق ويتحوّل الى خرق .
ضحك راف وقفز الى الأرض بعدما توقفت العربة في فناء يخيّل للمرء انه نحت في صخر التل . ورأت إلفي نبات الدلفى الزهري يعرّش بأغصانه فوق الجدران ويسند شرفات خشبية وأقواساً تؤدي بدون ترتيب الى جميع انحاء المطعم وكل ذلك ملفت للأنظار ببقع الطحلب هنا وهناك وبمنظره البديع الجذاب . . . وذكرها هذا المكان بمقهى الجزيرة حيث اعتنت إلفي بنكولينا وطفلها .
وفيما كانت إلفي تنظر بحدقة في ما حولها وهي واقفة في الشمس المحرقة أتى راف وأخذها من يدها وقادها الى الداخل حيث اشار الى خادم المطعم أن يجهز لهما مائدة لائقة . فأخذهما الى مائدة تظللها أغصان الكرمة . بدا لإلفي انهما مفصولان عن باقي الزبائن وان الخدمة تقدم لهما بعناية لها طابع

مميز يطبقه اللاتينيون عندما يقومون على خدمة خاصة بالناس . قائمة الطعام مزدهرة ومنوعة ونظر راف الى إلفي مستفسراً :

- هل تطلب فريدس من الحجم الكبير مع الليمون والخبز المحمص والزبد ؟

- هذا مثير للقابلية .

بالاضافة الى هواء البحر الذي ينبهها . وقال راف للخادم :

- اضف كمأة البحر على الفريدس .

والتفت الخادم نحو إلفي ممسكاً بقلمه ليدون طلبها وقال :

- شيء آخر يا سنيورا ؟

كشفت عن رأسها وأمالته الى الوراء وسطع شعاع الشمس عليه من خلال اغصان الكرمة وأبرز رشاقة عنقها . اما عيناها فشعّت منهما نظرة تحفظ وهدوء ولما رفعتهما بدتا كبركة ماء . وزاد من هدوء مظهرها بريق المجوهرات في اصابعها وعلى معصمها . . . هدوء يشبه برودة المطر الهادىء الخفيف واليوم الدافىء .

قالت إلفي لراف :

- انت اختر لي .

- حسناً . اقترح لحم عجل بعظمه والمخ وسلطة من الخضار . واتصوّر انك لا بد جائعة بعد هذه الرحلة .

- انت ساحر يا راف . لو عدت الى شقتي لاكتفيت بعجة بالبيض لحين . . .

قطعت كلامها عندما لاحظت كيف أخذت تقبض على حرف الطاولة بشدة ، الا انها تابعت :

- يحلو لي وجودي هنا . هذا النوع من المطاعم يجذبني اكثر بكثير من المطاعم المنمقة .

- هذا ما اعتقدته .

واستلقى الى ظهر كرسيه الخيزران وأخذ يتفرس في إلفي ، ثم قال :

- تبدين هادئة جداً .

- اخلع سترتك . خذ راحتك بغير رسميات .

- لم لا ؟

خلع سترته وألقاها على ظهر كرسيه وبدا عنقه اكثر سمرة وبرزت معالم وجنتيه . ورغم مظهر المهرّج الذي يبدو فيه احياناً الا ان رفقته لطيفة ولا يخلو حديثه من مواضيع مثيرة . تملكها الاستغراب ان تكون اكثر راحة في رفقته منها في رفقة زوجها .

اتى الخادم بسلة خبز مقطّع ومعها صحن من الزبد الذهبي اللون . تبع ذلك طبق الفريدس وبجانبه صلصة الليمون والأعشاب وطبق الكمأة اللذيذة .

وتحدثا بعد الغداء عن مختلف المواضيع وعن مهنة راف وامه الغجرية وشمل حديثهما بعض التفاهات التي كانت تضحكهما .

لدى إلفي احساس بأن راف قلما يتكلم عن أشياء عميقة أو جدية . روحه مرحة وجريئة ويملك صفة حسن التمييز والدقة مما جعله يتبنى مهنة التصميم . وكان قبل ذلك مصمماً في احد المسارح وأسرّ لها ان لندن هدفه حيث يأمل ان يفتح صالون ازياء فلندن هي الآن مركز الأزياء العصرية وهو لا ينكر أن له طموحاً كبيراً .

- انت لست مطلقاً ما كنت اتصوره عن الذكور من مصممي ازياء النساء . هل لك عائلة في روما يا راف ؟

سألته وهي تتفرس في حركات وجهه ولم تقوَ على اخفاء ابتسامة خفيفة .

- هل يظهر عليّ انني يتيم وحيد ؟

- من المؤكد انك تنجح في ابعاد الوحدة عنك ولكن يخيّل لي انك مثلي بلا اقارب .

- لا اقارب البتة ، حتى ولا حبيبة .

- لا تدفعني الى عدم تصديق ما تقول . انت ماهر في اعجاب الجنس اللطيف !

- هل اعجبك يا إلفي ؟

- استهلكت كل الطعام الذي اخترته لي .

- في كل الأحوال ، الآن وقد تزوجت ألم يصبح لك عائلة ؟ كنت في فيلا الجزيرة . . . اخبريني . . . كيف هي ؟

- جميلة ، غامضة ، وأثاثها من طراز ايطالي فاتن .

- سمعت ان امه كانت ساحرة حمراء الشعر وانها ماتت بفاجعة .

- نعم . سابينا ماتت وهي شابة .

- كالزهرة ، هيه ؟

مال واقتطف زهرة من بين الأزهار على الجدار وقدمها الى إلفي التي أخذت تشم رائحتها الزكية ، وفجأة فطنت انها بعيدة كثيراً عن روما واذا عاد روداري الى الشقة فانه لن يجدها وكانت قد أعلمت املكار بذهابها الى صالون التزيين فقط ولكن اذا واتاها الحظ فانه سيفترض بانها ذهبت لتتجول بين الحوانيت أو لتزور بعض الأماكن التاريخية . لا يجب أن يعلم روداري برحلتها هذه الى البحر . ألم يسأل عنه عندما رآه يكلمها في ذلك اليوم في قاعة عرض الأزياء ؟ فقد عبس ولاحظ بعينيه الثاقبتين جاذبية المصمم كما تحبها النساء والتي لا يحبذها أي زوج في نزهات بحرية .

- إلفي . . . تبدين بعيدة عن هنا .

أفاقت من غيابها في عالم الفزع فقالت له :

- كنت افكر . . . لا يجب أن نبقى هنا طويلاً يا راف ، وقد يتساءل روداري عن سبب تأخري وسيصر على معرفة مكان وجودي .

نظر اليها بتمعن ثم سألها سؤالاً عابراً :

- وهل ستخبرينه ؟

- لا . . . ليس عليّ أن اخبره بكل شيء أفعله ، أليس كذلك ؟

- ان تمضية بضع ساعات مع صديق وتناول وجبة طعام وتورد الوجه من جراء هواء البحر ليست جريمة .

- الرياح اخذت بالهبوب . . . ارجو الا يتغيّر الطقس .

- الرياح اكثر انطلاقاً في الساحل . وأعدك اننا سنرجع الى روما بعد أن نتنزه قليلاً على الشاطىء . انظري الى الزرقة التي تدعونا .

وعندما ألقت نظرة على البحر تحتها عادت بها الذاكرة الى تلك اللحظة الرهيبة في الجزيرة عندما انهارت الأرض تحت اقدام روداري وهو يتعارك مع نكولينا . وأجابت إلفي :

- صحيح . دعنا ننزل الى البحر .

- حسناً . ولكن سنأكل بعض الفراولة مع القشدة كالأولاد .

أشار الى الخادم وقدم الطلب اليه . لم يسع إلفي الا ان ضحكت . لأن مرح راف لا يقاوم ولا يخسر المرء شيئاً في رفقته . ودهشت إلفي لحجم الفاكهة وقالت برهبة :

- انها بحجم الخوخ .

- كلي فقط ولا تغالي الأشياء . هل مسرورة انت لانك لم تنصاعي لتهورك عندما فكرت في التخلص مني هذا الصباح كأني كنت اخطط للاعتداء على عفافك ؟

- تجعلني اشعر كأني فأر صغير .

- ولكن لم يكن الفأر مرتعباً ، بل وجلا وحسب وهو واقف على الرصيف يتدافعه جمهور المارة غير مبالين . . . وهذا ما جعلني آخذك من يدك .

- هذه شهامة منك يا راف ولكني لست تلك العاجزة . لا تنسى اني كنت ممرضة ومهنة التمريض خشنة على الرغم من الطقم الأزرق والأبيض . المرضى ليسوا كلهم شجعاناً أو عارفين بالجميل . بعضهم صعب المراس .

- كم سأحب لمستك الناعمة على جبيني الساخن لو كنت مريضاً ولكني دائماً أنعم بصحة جيدة واحمل معي تعويذة غجرية تحميني من الحوادث المفاجئة . . .

- يخيل الي انك تملك موهبة تدبير امورك بنفسك .

- نعم . . . ولكن اعترفي بانك تستمتعين بوقتك . لا يعرف مخلوق اننا هنا ، ولدى عودتنا الى روما سأفترق عنك قبل أن تصلي الى بيتك ، ولن اطلع احداً عن رحلتنا اليوم ويمكنك ان تدعي بانك امضيت هذه السويعات وأنت تتسكعين مثلاً في حدائق القياصرة .

- اني اكره الكذب .

- حسناً . اتستطيعين البوح بالحقيقة ؟

وبعد تفكير قصير اجابته :

- نعم ، ولكن بصعوبة . والآن ، هل نمشي في نزهة يا سنيور ؟

- بل هل نسبح ؟ من الممكن استئجار البسة سباحة والماء ملائم جداً ، واذا كنت لا تعرفين السباحة فسأعلمك .

- استطيع السباحة يا سيد حاذق . . .

نظرت الى الماء الأزرق الصافي وقدرت برودته . كانت قد تعلمت السباحة عندما عملت مدة سنة في بيت للحضانة قرب البحر وكانت السباحة جزءاً من عملها عندما كانت تنزل الأطفال الى الماء على اساس

كونها سابحة ماهرة .

وتذكرت احدى الليالي وهي في فيلا الجزيرة اذ نزلت لتسبح في البحيرة مع روداري . كانت تلك ساعة مثيرة مليئة بالسعادة التي تمزقت فيا بعد وتلاشت في ضباب الشك .

شعرت بالمرارة والسخط مرة اخرى وقبلت باقتراح راف . لم لا ؟ في استطاعتها استئجار قبعة لتغطي تسريحة شعرها الجديدة .

طلب راف الحساب وبعد ان سدده قال له هذا ان في امكانه الحصول على لباس السباحة من المطعم ذاته . فمعظم الزبائن يفتتنون بالبحر وتطيب لهم السباحة فيه . هل يتفضل السنيور والسنيورا في مرافقته ؟

سحب الخادم كرسي إلفي فنهضت بدون أن تجرؤ على النظر الى راف . تعلم ان نظرة الرجال الايطاليين في الزواج نظرة متزمتة بشكل غريب ، ولذا فانه من الطبيعي ان يفترض الخادم ان امرأة لابسة خاتم زواج في اصبعها هي حتماً زوجة الرجل الذي تناولت الطعام معه . جعلها موقفها هذا تشعر بالذنب ، ولولا تلك النزعة التي تلاحقها لتثور على روداري لتعلقت بأهداب راف وأجبرته على اعادتها الى بيتها .

بقي لسانها معقوداً وهما نازلان الى البحر تاركين حوذيهما يغط في نوم هادىء في عربته . لفّ كل منهما منشفة حول خصره فوق ثياب السباحة المزركشة ، وكانت خطوات اقدامهما ترن على السلم . السكون شامل وروائح الأزهار منتشرة . واختلط ازيز الصرصر بصوت الرياح التي كانت تحمل صواري الزوارق تتمايل . هناك العديد من الزوارق من جميع الأشكال بحبالها وأشرعتها وشباكها وسلاسلها وتماثيلها الأمامية الرمزية . كل ذلك كان يبدو مخدراً في الشمس بغطيه ضباب رقيق تفوح منه رائحة الملح .

وقفت إلفي بجانب الحائط المهترىء من تلاطم أمواج البحر عليه وامتد نظرها الى البيوت المبنية على طول الشاطىء بدون أي تنسيق والى الحدائق التي تصل حتى الماء . ورأت عربة تبيع الليمون امام احد الأبواب واعجبت بعناقيد الليمون المدلاة من سقف العربة .

كل شيء بدا غافياً . وهما وحدهما لم يقعا تحت سطوة سحر الحرارة والهدوء المسيطرين على قرية الصيد . . . ولم يعكر صفو هذا الهدوء الا

صوت مقص آت من الجهة الثانية للجدار . ودفع الفضول إلفي وراف ليلقيا نظرة فرأيا امرأة تشذب شجرة تين وتحادثها وهي تعمل .

تساءلت إلفي :

ـ ترى ماذا تقول ؟

ـ هناك قول ايطالي مأثور ينصح بالتزام العذارى وراء أبواب مقفلة في موسم تبرعم التين .

ـ لكني لست بكراً .

ـ كلا (ونظر اليها بعينين ملتهبتين) انك متزوجة زواجاً اميناً . كدت انسى ذلك .

ـ لا تنسَ ذلك يا راف .

ركضت وسبقته الى الماء . وبدأ المد النشط يغمر رمل الشاطىء بما فيه ، وأسرعت وراء زورق راسٍ على الرمل وفي الحال خلعت فستانها وملبسها الداخلي وارتدت ثوب استحمام بلون البرتقال وغطاء رأس بخضرة التفاح وخرجت من مخبئها وهي تضحك وصرخت عن بعد :

ـ اني اشبه قطعة كراميل في طرف عود .

برز راف واخذ لنفسه وقفة عرض فيها جسمه الأسمر النحيل مرتدياً لباس حمام ذهبي اللون . ضحكت إلفي بعصبية واندفعت مسرعة الى الماء . شعرت بالريح تضرب وجهها وعنقها وشهقت عندما اسلمت جسمها للماء البارد .

سمعت راف يهتف «جميل! جميل!» ورأته يتخبط في الماء مستسلماً اليه بمرحه المعهود واخذ يسبح كالدلفين الصغير .

ـ لنتسابق!

انضم اليها واشار باصبعه الى طرف حاجز الماء الخشبي حيث كانت الأمواج المتلاطمة تتحول زبداً . وعرض عليها مستهزئاً فرصة لتبدأ السباق قبله ، فنهرته قائلة :

ـ شكراً . لست بحاجة الى ذلك .

ـ اذن ، لا تخسري لان الخاسر يدفع ثمن الخسارة .

ضحكت إلفي وخاضت في الماء واستعدت للبدء ووجهتها نهاية الشوط في طرف الحاجز الخشبي . قالت إلفي باعلى صوتها :

ـ خذ مكانك . . . استعد . . . الى الأمام!

اخذت حركة ذراعيها تتناسق مع حركة ذراعي راف وازدادت عزماً عندما رأته ينظر اليها ووضعت نصب عينيها الانتصار عليه. وعرفت من كمية الماء الذي كان يرتفع فوق يديه ورجليه انه ليس ذا خبرة في السباحة مثلها . . . ومن طريقة انسيابه في الماء التي لا تشبه خبرة زوجها في الانسياب. وحتى هنا رغم بعد المكان لم تتخلص من سطوة روداري عليها وفي كل مرة تحاول التملص منه اثناء السباحة ترى نفسها في نهاية الامريين ذراعيه المتلئين في ضوء هلال تشبهه بقرن ذهبي للشيطان! ولما كانت غارقة في افكارها لم تسمع صوت الزورق النازي الذي كان آتياً بسرعة فائقة حول منعطف الخليج وهو يثير امواجاً من الماء في طريقه نحوهما وفي اللحظة الأخيرة فقط انتبه سائقها الى وجودهما فانحاز عن راف الذي حاد عن طريقه بسرعة فائقة، الشيء الذي لم تتمكن إلفي من عمله فرفعتها كتل الماء الهائجة الى اعلى كقطعة فلين وصارت تدور حول نفسها بلا حول واحست انها تختنق كلما لطشتها المياه التي كانت تدفعها قوة سرعة الزورق في كتل عنيفة. جاهدت كثيراً لتستعيد انفاسها وسقطت اخيراً في حوض بينما اطرافها لا تملك القوة على الحركة. احست بانها على وشك ان تفقد حواسها واستحوذ على فكرها المشوش الخوف من انها لن ترى روداري مرة اخرى.

وجوه . . . مشاهد . . . كانت تصخب في رأسها عندما تقاذفتها كتل الماء الجنونية . . . بعدما امضيا وقتاً مرحاً كطفلين بريئين . . . الآن يحيط بها الظلام من كل جانب . . .

٨ ـ مكان لشخص ثالث

احست بشعور غريب وكانت واعية بانها في غرفة غريبة أيضاً . دخلت الشمس بنورها الباهت عبر مشبك النافذة الحديدي ورسمت نماذج على الجدران البيضاء . ولم تدر انها تضغط بأصابعها على بريم غطاء السرير المجدول . كل شيء في الغرفة غير مألوف لديها . . . الى أن دارت برأسها على الوسادة ووقعت عيناها الغائمتان على شخص كان منحنياً فوقها . عرفت صاحب هذا الوجه الصارم والشعر الأسود في أعمق اعماق روحها . كانت قد تعرفت عليه قبل ان تلتقي به كما لو حدث ذلك في حياة ثانية . . . ألم يقل لها هو نفسه بانها كانت عبدة لروما في الماضي الغامض البعيد ؟

ـ أهذا انت ؟ شيء ما حدث لي . . . لا . . . لا اتذكر ما هو بالضبط .

احست والعبارة تخرج من فمها بصوت ضعيف ان لشفتيها الجافتين طعماً مالحاً ، كما أحست بالغثيان بينما بدا الشحوب على وجهها جلياً .

ـ ستتذكرين عما قريب .

مد ذراعه تحت ظهرها ورفعها لتجلس مستندة الى الوسائد وراءها . احست بقوة هذه الذراع وحرارتها . ووضع كأساً فيه ماء على شفتيها فشربت بتلهف متسائلة عن سبب بلادة حركتها وضعفها .

ـ شعرت كأني جافة . . .

ـ لا غرو بعد ان ابتلعت كل هذا الماء المالح .

حدقت فيه وبدأت تشعر بالارتباك والخوف . رأت في وجهه نظرة . . .

قاسية .

- اوه . . . هل كنت على وشك الغرق ؟

بدأت ذاكرتها تعود اليها وامتلأت عيناها بالرعب وهي تتذكر الأحداث التي أدت بها الى وضعها الحالي وكل نقطة تتذكرها كانت بمثابة طعنة في قلبها خاصة ان نظراته بدت خالية من الشفقة . وأجاب :

- نعم . ولكن ستيفانو أنقذك وأعادك الى الشاطىء في الزورق الذي تسبب في كل هذه المشاكل . افرغوا رئتيك من الماء وأتوا بك الى هنا ورأى ستيفانو لياقة وتبصراً منه أن يتصل بي . فحملني لانشياني في طوافته الى هنا وكنت ما تزالين غائبة عن الوعي عندما وصلنا . . . وأقل ما يقال هو اني صدمت عندما وجدت زوجتي في هذه الحال بينما كنت موقناً بانها في أمان في البيت .

- لم . . . أر أي سوء في تناول الغداء مع راف . . . خاصة انه لا يبدو عليك انك تهتم كثيراً . . .

- اهتم في عدم تورط امرأتي مع رجل آخر .

لم يأبه لدموعها وبان الغضب في انفتاح منخره وبروز وجنته واحمرار عينيه . وأضاف مؤنباً :

- انك دائماً تنجحين في اتخاذ مظهر البراءة وما أن ادير ظهري لك حتى تقعي في مشاكل . قد ازعزع كيانك يا إلفي .

أظهرت ابتسامة مرغمة علها تحرك مشاعره فقالت :

- ارجوك . لا تفعل هذا . اشعر بشيء غريب في رأسي . . . كأنه محشو بالقطن .

- تناولت مسكنات لتساعدك على النوم كل الليل فتخلصك من آثار الصدمة التي ألمت بجهازك .

- هل افهم من ذلك ان كل هذا حدث البارحة ؟

- نعم . قمت بمجازفتك الصغيرة مع راف ستيفانو يوم أمس وبقيت أنا طيلة ليلي هنا . أما هو فعاد الى روما مع لانشياني .

تلقت كل هذه المعلومات بألم كبير ولاحظت ان زوجها لم يكن حليق الذقن وان قميصه مفتوح عند الياقة وربطة عنقه منحلة . وكان ظاهراً انه لم يغمض عيناً ، فأخذ قلبها ينبض بسرعة لأنه بسببها امضى ليلته ساهراً

وربما قلقاً عليها .

- كل شيء كان سليماً وبريئاً . . . كنا كالأطفال نلعب في الشمس يا روداري (قالت مادة يدها له)صدقني .

- اميل للاعتقاد بانه لو لم تنجي من حادثة الزورق لكنت سقطت في حبائل صديقك الماكر . يقولون لي بانه يتصوّر نفسه لوثاريو ، ذاك الخليع المعروف في كتاب رو الانكليزي وفي قصة دون كيشوت أو كتاب غوته الالماني . أتعرفين عن لوثاريو ؟

- أليس معظم الرجال مثله ؟

أخذ ذهنها يصفو رويداً رويداً وهو يتخلص من تأثير المسكنات . ولكن روداري ، من دون الرجال ، ينصب نفسه قاضياً على راف . . . ؟ راف هذا الذي انقذ حياتها ؟

- اظن انك فضلت لو انني غرقت . . . فقد ينقذك هذا من ارتباكك في الاقرار بفشل زواجنا .

- تتكلمين وكأنك ما زلت مصابة بالدوار (قال وهو يحك ذقنه) لما تعرضت للخطر لو انك لم تنقادي لكلمات هذا الشاب المعسولة وطيشه .

وفجأة تولاها خوف شديد جعلها تنكمش على نفسها عندما مد يده ووضعها على مؤخرة عنقها وقال :

- هل تعتقدين بأني احب أن ينتشر في الجرائد خبر عملك الطائش ؟ لو لم استعمل نفوذي واهدد لكنت قرأت عن حادث مثير يقع لزوجتي في البحر مع رجل آخر . يا للسماء ، أنت ترتعشين ، هل اصابك برد . . . حمى . . . ؟ تكلمي !

- انا مرتعبة منك . الا تشعر بالاشفاق يا روداري ؟

تغيّر وجهه من عابس الى خائف . قال :

- يجب أن تتناولي شراباً ساخناً وشيئاً مغذياً . هل تشعرين بالقابلية ؟

توقفت قبل أن تجيب لتختبر رد فعلها على اقتراحه ورأت ان شعورها بالغثيان تلاشى تقريباً فقالت :

- اعتقد كذلك . . . بيض مع الخبز المحمص ينعشني .

نهض واقفاً وتناول سماعة التلفون وطلب الخبز المحمص لإلفي وبيضاً مقلياً بالكلوات وابريق قهوة وكمية من الكريما الطازجة . . . وقال مضيفاً

بصوت جهوري :

- للسنيورا ، زوجتي .

احتارت إلفي في موقف تتخذه من هذا الرجل الذي يتبدل من الغضب الى القلق . ما شعوره نحوها بالضبط ؟ ما نوع الانفعال الذي جعله يقسو عليها برغم انها كانت على قاب قوسين من الموت ؟ الا يتسامح هو ؟ هل يتوجب عليها ان ترضي طلباته بينما هو يخطط للقاء مع كاميلا ؟ تنهدت بحسرة وقالت :

- لا اريد الموت يا روداري لاني سأخسرك . . . ولكن يا حبيبي الغريب ، لماذا ابالي بك بينما انت لا تبالي الا بكبريائك ومركزك ؟ لماذا اسمح لك بقول هذه الأشياء لي وانا عالمة بكل شيء ، عن نكولينا وعالمة ايضا بحديثك عن الحب مع شخص آخر . . . عن حب حتمي كحتمية وجود النجوم ؟

دخل الخادم بعربة تحمل الفطور وبدا عليه احترام سكون الغرفة ربما تخوفاً من روداري الواقف بقوامه المديد عند النافذة فلم يجسر حتى على النظر الى السرير .

- اترك العربة هنا (قال بلهجة الآمر) سأقوم على خدمة السنيورا بنفسي واسكب القهوة لها . من الممكن أن تطلب الى كاتب الاستقبال ليحجز لنا سيارة تأخذنا الى روما خلال ساعتين من الآن ريثما تكون زوجتي جاهزة .

- نعم يا سنيور .

انسحب الخادم وأغلق الباب بهدوء . واقترب روداري من عربة الطعام وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة وباشر في تحضير الصحون والفناجين . مد لإلفي فنجان قهوة فوقها كريما فوجدتها ترياقاً لحلقها الجاف . قالت هامسة :

- لذيذ . كنت اتحرق لقهوة كهذه .

بقي واقفاً بجانب السرير حاملاً فنجان قهوته وتحركت عيناه تأثراً بالعبارة المرحة التي تفوهت بها بعد ان اقتربا من الحقيقة .

- سنمضي بقية الاسبوع في روما . وسنذهب بعد ذلك الى فيلا كورفينا حيث تمكثين مع جدتي .

- الكونتيسة ؟

بقيت الملعقة في نصف الطريق بين الفنجان وفمها لدهشتها لهذا الاقتراح .

- نعم . هكذا أعرف انك في أمان وقد يفيدك هذا . يجب أن اتفاهم مع الجدة الآن بعدما تزوجت . آن الأوان لكي تندمل الجراح القديمة .

- الا تثق فيّ يا روداري بعد الآن ؟

- هل برهنت لي انني استطيع أن اثق فيك ؟ لا ارغب في أن اطلب مرة اخرى على التلفون ويقال لي بأن حادثاً وقع لزوجتي . هذا قراري . ستبقين في الفيلا مع جدتي .

- هل فكرت في أن موقفها مني قد يكون مثل موقفها من امك ؟

تنفس كمن شعر بالألم وتفرّس في إلفي وهي شبه عارية تبدل ثيابها . وأردفت تقول :

- لا اريد الذهاب الى مكان حيث أكون مكروهة . . . لأنك انت امرت بذلك . اذا كنت تريد أزاحتي من طريقك . . .

- اريدك في مكان حيث تكونين بعيدة عن متناول الشبان اللاتينيين المتعبين ، وستبقى هلين في الفيلا لتكون رفيقة لك وستعامليها بالحسنى . انها بحاجة الى شابة تصادقها . اما من جهة جدتي فان لك روحاً قوية كافية لتصد مضايقتها عنك واذا لم تفلحي فسيكون حسابها معي .

- ستحاول مضايقتي عندما تعلم بسبب وضعي تحت حراستها .

- وهل تتصورين انني سأطلعها على عمليتك الطائشة ؟ كلي البيضة قبل أن تبرد .

- حاضر يا سنيور . سأفترض باني سأعامل منذ الآن كطفلة متهورة موضوعة تحت المراقبة ؟

- لا تبالغي .

انحنى الى الأمام ودللها باطعامها قطعة من التين الفاخر وبحركته هذه ذات المعنى الخاص دل على انها ليست طفلة في نظره . اكلت الفاكهة والتقت العيون وكادت ترتمي في احضانه . . .

- سنمضي في تصوير مشاهد الفيلم لمدة اسبوعين . وسنصوّر بعد مشاهده المهمة في صقلية حيث الحرارة مرتفعة الآن . لذا أرى من الأفضل

أن تبقي في كورفينا . قد تنجحين في سحر هذه المستبدة التي تحب طرقها في الحياة حباً كبيراً .

- كما تحبها انت ايضاً . وتسيّر الأمور حسب رغباتك . فقد تزوجتني لترضي ميلك للانتقام وتعتقد بانك تستطيع ان تعاملني كفتاة لاتينية ما عليها الا ان تتلقى اوامرك وتخضع لرغباتك . وفي النهاية تخزّن هذه العروس في بيت جدتك لتقوم بجولاتك للمتعة .

- سأقوم بجولات ، هذا صحيح ، ولكنها جولات عمل . انزعي هذا الانفعال من قلبك والا ستمرضين . تعقلي . ان فريق العمل في فيلم ابطالي خارج الاستوديوهات فريق صاخب ، شديد الاهتياج وكثير الانشغال . سنأجر محلات لأخذ المشاهد وهذا يستوجب ملاحظة وشرحاً ومساومة . انا اعمل وأنت تبقين وحدك مدة طويلة اذا لم تذهبي الى بيت الجدة . وهكذا اتورط مع شاب لاتيني آخر له مطامعه في طهارتك .

- وهل يهمك ذلك يا روداري ؟

- يهمني لأنك جزء من اسم فورتوناتو وتقاليدهم . عقيدتنا هي الأمانة والقلب الواحد .

- تطبقون هذا على الزوجة فقط على ما أظن ؟

- ماذا تعنين بملاحظتك هذه ؟ انت التي حدثت عن الطريق يا عزيزتي انا لم احد .

- ستحيد عنها قريب (علقت على كلامه بحدة) انك تنتظر ليلة الحفلة الراقصة حيث سرّية الأقنعة وذكريات مدينة البندقية .

- يا للشيطان . . .

امسك بكتفيها بشدة آلمتها وأضاف :

- ما يخص الماضي يا إلفي لا يتعلق بمستقبلنا . . . هل تسمعين ؟

- نعم . . . سمعتك (وأفلتت من قبضته) اريد ان استحم ثم ألبس ثيابي . فقد لا يتأخر وصول السيارة .

تركا المطعم بعد ساعة من الزمن وعادا مسرعين الى روما . كانت إلفي منزوية في السيارة تراقب مناظر البر الهاربة وكأن احداث يوم امس وقعت منذ أجيال مضت . فما أغرب ما ينسى الانسان أشياء وهية بهذه السرعة . والواقع ان محور وجودها وكيانها هو روداري نفسه . عاركته ومع ذلك

استسلمت له . لا يهمها شيء سوى حبها له .

تنهدت . . . اذا كانت قوة حبه لكاميلا بمقدار حبها هي فانها تفهم لماذا يلاحقها . يستولي الحب على القلب وعلى الأفعال ويدفع بك الى عمل وقول اشياء للحبيب لا يحلم ان يقولها لغيره من الناس .

- هل تشعرين بالارتياح ؟ هل تشعرين بأي الم في جسمك ؟

أعاد روداري وضع السجادة الصغيرة على ركبتيها كما كانت قبلاً وقد أصر على تغطيتها رغم حرارة النهار .

هزت رأسها نفياً . برقت الشمس على حجر الياقوت في خاتمها . نعم . شيء في جسمها يؤلمها : قلبها ! ويوجد له علاج واحد فقط .

وصلا الشقة واعتذرت إلفي لأنها ترغب في أخذ غفوة على الكرسي الطويل في غرفتها . قدم لها املكار غداء خفيفاً من لحم الدجاج على صينية مع بعض الأزهار . تأثرت بهذا كثيراً . وككل خادم صالح شعر بأن شيئاً ما حدث فعبر عن احساسه بدون كلام

- املكار .

- نعم يا سنيورا ؟

- هل اخبرك زوجي بأن سابقى في فيلا جدته أثناء غيابه في صقلية ؟

- نعم . ذكر لي السنيور ذلك . ستكون الشقة خاوية يا سنيورا .

- ومع ذلك لم يمض على وجودي في روما زمن طويل .

قال وهو يتلفت حواليه :

- كانت هذه الغرفة مخصصة للضيوف قبل زواج السنيور ثم أتى مزخرفون وانتما في شهر العسل وغيروا ديكورها الى ما هي عليه الآن حسب أوامره . انها تليق بك يا سنيورا .

- اي ضيف أو ضيفة استعمل هذه الغرفة قبل مجيئي يا املكار ؟

حاولت أن تجعل سؤالها عادياً لا فضولياً وأخذت تنشق رائحة الأزهار كي تخفي ما في داخلها من تلهف لجوابه . يجب أن تعرف وأن تتحمل حتى النهاية قبل أن يأخذها روداري من الشقة لتعيش مع الكونتيسة . . . المرأة التي باستبدادها جلبت التعاسة لأمه . اجابها املكار بشيء من التردد :

- للسنيور اصدقاء عديدون .

- وجدت كتاباً على الطاولة في الشرفة . هل كان يخص الضيف أو

الضيفة التي امضت بعض الوقت هنا والتي اعتقد بأن اسمها كاميلا ؟

- نعم يا سنيورا .

لحظت إلفي نظرة العذاب في عيني املكار الذي تتجاذبه امانته لسيده وشعوره لربة البيت الشابة النحيلة المنكمشة في الكرسي الواسع . وتابع كلامه قائلاً :

- اقامت هنا مرة واحدة فقط (وأخفض صوته خوفاً من أن يسمع) كانت الكونتيسة الشابة تعبة جداً وأتت لتقابل السنيور في ساعة متأخرة من احدى الليالي وكانت لا تزال هنا عندما أتيت للتنظيف في الصباح واستطعت أن ارى من وجهها انها بكت . . . وحالاً بعد ذلك تزوجت من خطيبها .

أحست ببرودة الثلج في يديها وهي ممسكة بفنجان القهوة وقالت له :

- فهمت الآن . اشكرك لاطلاعي على ذلك يا املكار . من المتوجب عليّ أن اعرف .

أحنى لها رأسه وانسحب من الغرفة بهدوء . وسمعت بعد ذلك شخصاً يتكلم في الممر وتوترت اعصابها عندما فتح الباب ودخل روداري يرافقه رجل ذو شعر رمادي لابساً طقماً أسود أيضاً وحاملاً حقيبة سوداء صغيرة .

- طلبت من طبيب العائلة أن يجري فحصاً عليك . هذا الدكتور روسي يا عزيزتي .

عبس روداري وهو يعرّف الدكتور عليها عندما وقع نظره على وجهها الشاحب .

- اني في حالة جيدة .

- حسناً ، ولكني احب أن اتأكد بنفسي (ونظر الطبيب الى روداري وتابع يقول) افضل ان انفرد بزوجتك يا روداري تصيبني العصبية اذا حام الأزواج حولي .

ولما لم يكن روداري المتحكم بمعظم الحالات ليلقي الأوامر على الطبيب ابتسم وخرج وهو يهز كتفيه استسلاماً تاركاً إلفي بين يدي الدكتور روسي .

- اذن تزوجت من أحد مواطنيّ ، هيه ؟

تناول يدها وكان وهو يدقق في نبضها ويتفرس في وجهها بعينين

ثاقبتين . وتابع كلامه سائلاً

- هل تحبين ايطاليا يا سنيورا أو هل يبدو كل شيء جديداً وغريباً ؟

- اسمع يا حضرة الطبيب (قالت وهي تضحك بعصبية) كنت ممرضة قبل زواجي واعرف اني على ما يرام .

- من المؤكد ان الأسى كان شديداً عليك عندما تخليت عن مهنتك وعندما رأيت نفسك عروساً بلا عمل معين . الرجال في ايطاليا لا يرغبون في أن تعمل زوجاتهم خارج المنزل . . . ارجوك ، افتحي ثوبك قليلاً .

وضع المسماع على قلبها ثم على رئتيها وطلب منها ان تتنفس بعمق .

- اظن انه يجب ان اعطيك بعض الحبات لازالة البحة الخفيفة . لا نريد ان تحدث التهابات في رئتيك . . . قلق زوجك كثيراً وخشي من أن يؤدي حادثك الى اصابتك بذات الرئة . وكما تعلمين ماتت امه شابة على الرحالة كهذه والرجال الايطاليون ينفعلون لأي سبب حتى الذين مثل روداري .

زررت إلفي فستانها وأحست برعشة في يديها وفي الحال انارت وجهها ابتسامة حلوة وقالت :

- هل حقاً قلق بشأني ؟

تطلع فيها الطبيب وهو يكتب لها وصفة الحبات وقال :

- قلق كثيراً واصر بالتلفون على ان آتي اليك باقصى سرعة كأنك على وشك الولادة . ليساعدني الله اذا حدث ذلك . فسيطلب مني أفضل الممرضات ليقمن على خدمتك وسيشتري مخزناً كاملاً من الألعاب وسيتمنى أن يحصل على بركة البابا ! وهذا ما يجعلنا نعتقد ان بعض الرجال لا يتزوجون الا للحصول على مولود ذكر !

ضحك الطبيب وتناول حبة فاكهة من صينية إلفي . وقالت معلقة :

- اعتقد ذلك يا دكتور روسي .

نظر اليها بعينين ماكرتين شاملاً جسمها وقال :

- من يريد مولوداً ذكراً عليه أن يتزوج من نساء ريفيات قويات . هل تريدين اعطاءه طفلاً ؟

- اذا رغب في ذلك ، وأخاله راغباً (تلاشت ابتسامتها) ربما هذا ما سبّب له القلق بشأني ، اذ يريد أن يحفظ بلقب العائلة بالرغم من انه لا يستعمله لنفسه .

- عائلته عريقة في الحب والنسب ، وتعود جذور آل فورتوناتو الى الماضي الروماني . . . انظري اليه . . . (ولكنه ضحك ثم قال) ولكنك اخذت اكثر من نظرة . . . اخذته هو .

- الا تحتار يا دكتور انه يوليني اكثر من نظرة فقط ؟

- احتار ؟ لا افهم ما تعنين .

- ليس لي جمال ايطالي يسلب الألباب كما لست ثرية وفاتنة .

- انت يا سنيورا لطيفة ووسيمة .

- هل هذا يرضي رومانياً عريقاً وذا سلطان ؟ انت دهشت عندما دخلت هذه الغرفة وراقبتني كما يفعل كل واحد عندما يراني لأول مرة ، فاشعر باني . . . غير وافية . كنت اجيد عملي وأنا ممرضة وكنت اكيدة من عدم ارتكاب اخطاء مربكة .

- انت بعد في أول زواجك .

أخذ الطبيب يدها وقال بعد أن درس اظافرها الصفراء :

- هل انت حامل ؟

جفلت لسؤاله الصريح وأجابت :

- لا ادري ، قد اكون . . .

- هل يسرك ان تكوني حاملا ؟ من النساء من لا يرغبن في ولادة مبكرة .

- قد يساعدني ذلك على الاحتفاظ به. الا تعتقد ذلك؟ ساكون اماً لـ . . .

قطعت كلامها فجأة عندما رأت في ذهنها صورة الطفل نيكولا في الجزيرة الذي فيه كل مواصفات والده الشديد الجاذبية . ابتلعت ريقها . . .

رفعت إلفي يدها الى رأسها الذي كان يدور في دوامة . الطفل هبة حميمة من الرجل ولكن يجب ان يولد الطفل من الحب ويترعرع في ظله وأن يعرف مكانه في العالم . نهض الطبيب وقال وهو يوضب حقيبته :

- سأعود لزيارتك بعد وقت قليل . . .

ثم اضاف وهو يتطلع في الغرفة باعجاب :

- هل هذه الرسوم على الجدران من رسم مانيه الفرنسي الانطباعي وتلك الراقصة الباليرينا من رسم ديغا الفرنسي الانطباعي ايضاً ؟ يبدو لي

انك سيدة مدللة .

ابتسمت للطبيب وهي في كرسيها الطويل وبدت في ثوبها الحريري وشعرها المجعد وياقوتها في اصابعها وعلى معصمها صورة حية لما يكون رسمه مانيه نفسه . وقالت :

- روداري دائم السخاء . هنا كل ما يلائم عروس فورتوناتو . ولكني اكون سعيدة لدرجة قصوى لو . . .

- الحب ليس وسيلة للسعادة فقط . انه للعذاب ايضاً ولتفهم من تهتم بهم . وزواج بلا محن يتخلله الضجر وصيف بلا شتاء يخسر اكثر من نصف جماله .

- ارى انك رجل فيلسوف يا دكتور روسي . وكونك لاتينياً تعطي الأشياء صورة جذابة . وأنا اشكرك لزيارتك لي .

- هذا من دواعي سروري يا سنيورا . اني صديق لآل فورتوناتو وطبيبهم الخاص ، وسترينني مستعداً لحديث آخر كهذا كلما احتجت لسماعه . ان زوجك رجل ذو سطوة مدمرة وتشعرين بالانطواء امامه بطبيعة الحال وتتساءلين عن قدرتك في ارضائه . يجب أن ترضيه . . . فانت زوجته . . . الى اللقاء . قد اراك في فيلا كورفينا حيث أذهب لفحص ضغط دم الكونتيسة . هل تعرفين هلين ؟

- نعم ، وأحبها كثيراً .

- هلين شابة ويجب أن تتزوج ثانية وتنجب طفلين على الأقل . لها قلب عطوف تمنحه لاعمالها الاجتماعية ولصالات عرض الفنون الجميلة . الا تعتقدين انها تهدر جمالها الجذاب ؟

- نعم . ولكن الذي يحب حباً صادقاً مرة واحدة يستحيل عليه أن يحب مرة اخرى .

- بدون حب من نوع أو من آخر لا تطاق الحياة . وحاولي أن تقنعي هلين لتلبي بعض الدعوات التي تتلقاها من الشبان . واذا داومت على رفض الحب مرة ثانية رغم مشاكساته فستصبح امرأة متبلدة الشعور وبدلاً من مخلوق حقيقي ستتحول الى شكل وصورة . لا يأتي الحب بالمعجزات ولكنه يؤنسنا .

- في ظني ان لك انيساً نادراً يا دكتور .

ـ كلا مع الأسف . . . ان انشغالي في ترميم الأجسام والعقول لا يترك لي مجالاً للزواج . نعم . اعرف ما يجول في خاطرك . كيف اجرؤ على تقديم النصح لهلين لتجد زوجاً لنفسها . . . ولكن هلين امرأة وعرفت الزواج من قبل . ولا يستحسن أن تبقى المرأة وحدها ، ستتركها الكونتيسة العجوز يوماً ما وحيدة في تلك الفيلا على تلال سابين .

طرفت عيناه تحت أجفانه الرمادية السميكة وعبّتا عن حيوية خارج عمل مهنته . وتابع حديثه قائلاً :

ـ يذكر التاريخ كيف اختطف الرومان النساء السابينيات بدون أن يملوا بالحياة والفن والشعر . هذه أشياء جميلة في مكانها وزمانها ، ولكن . . .

توقف عن الكلام وأخذ يهز رأسه انتقاداً لنفسه وهو يتجه نحو الباب :

ـ سأخبر روداري انك لست في الحالة التي كان يخشى وجودك فيها . استريحي الآن . رجلك ساحق وسأطلب منه أن يتركك وحدك لبضعة ساعات . الوداع ثانية يا سنيورا .

ـ الوداع يا دكتور .

أخذت إلفي بالتأمل في هلين والنساء السابينيات . هل من الممكن أن يكون الطبيب معجباً بهلين لا بصفتها حفيدة الكونتيسة بل بصفتها ارملة جذابة ؟ . . . قد لا يخلو من بعض الشعور ليتكلم بهذا الشكل عن اختطاف السابينيات على يد جنود لا نساء لهم ليقتلوا الوقت معهن ايام الشتاء .

تلهت إلفي بحجر الياقوت في معصمها . للحب وجوه غريبة حقاً . فالنساء يفضلن حباً سامياً ودائماً ، حلواً واخاذاً . لكن من الصعب معرفة نظرة الرجال الى الحب . هل يخلطون بين الشهوة والحب ؟ هل يعتقدون ان في استطاعة المرأة أن يقاسمها الرجل في قلبها وجسدها كما يريدون أن تقاسمهم المرأة في حبهم وجسدهم ؟

لا تتصور إلفي التقاسم الا بينها وبين روداري . وفجأة خطر لها أن تراه ولو لبضع دقائق . اشتهت أن تنظر الى وجهه الأسمر المدمر ورسخ في ذهنها أن ابنها هي فقط سيشبهه .

دخل املكار بهدوء ليأخذ الصينية وسألته اذا كان السنيور منشغلاً في

مكتبه .

ـ خرج السنيور لفترة وجيزة يا سيدتي . قال انه سيعود في موعد الغداء .

حاولت الظهور بتقبل الخبر كأنه شيء عادي لتخفي قفزة فكرها نحو كاميلا .

ـ ربما ذهب الى الاستوديوهات وقد يتأخر قليلاً . يمكنك ترك العمل باكراً هذا المساء ، وسأطبخ العشاء بنفسي .

ـ شكراً يا سنيورا . هناك فيلم اريد مشاهدته .

ـ هل انت من المعجبين بالأفلام يا املكار ؟

ـ انها تقتل الوقت يا سنيورا . استمتع كثيراً بالأفلام المبنية على كتب السنيور .

ـ انت كثير الاخلاص له .

ـ من يستطيع أن يكون غير ذلك ؟ لقد دفع مصاريف المستشفى عندما مرضت والدتي وقدم لنا شقة جميلة ليست بعيدة من هنا . انه شخص ذو كرم عظيم .

ـ صحيح يا املكار .

لعبت بأصابعها بتنية في مشلحها الخفيف الاسود ولما عادت وحيدة في غرفتها اتجهت بأفكارها الى الملابس العصرية التي تملكها نكولينا والتي لا تستطيع أن تستعملها في الجزيرة ومنها الأثواب البراقة الطويلة والأحذية ذات الكعب العالي المستعملة في الرقص .

روداري راقص ماهر كغيره من الشباب اللاتيني وله اذن قوية في الايقاع الموزون . راقصته إلفي مرات كثيرة على شرفة الفيلا المطلة على البحيرة على أنغام موسيقى ناعمة كلها حنين . ارتعشت لتذكرها سحر وجودها بين ذراعيه .

بدت هذه الذكريات كحلم كله سحر محته رسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة ومبلغ من المال مرصود في المصرف لتأمين طفل ضد العوز .

اغمضت عينيها لتعيد الى ذهنها صورة ذاك الطفل ذي الوجه الزيتوني والعينين السوداوين الواسعتين والرموش المتجعدة والذقن الصغيرة التي تتوسطها تجويفة صغيرة كأن رأس اصبع طبعها هناك .

- لا . . . (صرخت فجأة) آه ، كلا يا روداري .

ترك املكار عمله عند الخامسة مساء وقامت إلفي بتحضير العشاء .

وجدت في البراد شرائح من لحم العجل والكثير من البندورة والفطر الصغير وعزمت على طبخ يخنة باللحم ، وجبة لا تفسد في حال تأخر روداري . قطعت بطيخاً اصفر وجزبيلا في شرائح ووضعت بجانبها علبة من السيكار الرفيع الذي يفضله روداري . عادت بعد ذلك الى غرفتها وبعد حمام بالماء الفاتر لبست بعناية فائقة احد فساتينها الجديدة التي تسلمتها البارحة وعلقها املكار في الخزانة البيضاء بأبوابها ذات الفتحات في وسطها والمليسة من الداخل بخشب الأرز والمرايا التي تساعدها على رؤية نفسها من جميع الزوايا . ثوبها له لون رمادي بلون الضباب . . . هذا هو الثوب الذي صممه راف لها .

راف . . . من الواجب أن تتصل به غداً لتشكره على انقاذه حياتها ، حدقت في عينيها في المرآة . كيف تشكر انساناً على عمل جسيم كهذا ؟ الكلمات لا تكفي وروداري حرّم عليها مقابلة راف مرة اخرى .

أخرجت سبحتها من العلبة ووضعتها حول عنقها . انها لا تخشى سقوطها الآن لأن روداري كان قد أخذ السبحة الى صانع المجوهرات في الجزيرة ليقوّي مشبكها . مرّت بأصابعها على المئة لؤلؤة . يعني مئة صلاة تلتها فيها مضى امرأة غيرها .

قطع عليها أفكارها رنين التلفون في الصالون الصغير ، فأسرعت لترد عليه مطمئنة الى ان المتكلم هو روداري الذي يتصل ليعلمها بانه سيتأخر عن العشاء .

- انا آت الى البيت يا عزيزتي - كان هذا روداري - ويصر لانشياني ان يأتي معي . هل لديك اي مانع ؟ هل لدينا ما يكفي لثلاثة ؟

اطمأن بالها لانه آت وقالت وهي تبتسم :

- طبعاً . لأن املكار يخزن كفاية من الأطعمة وسأزيد من كمية المقبلات ، المليون ، مثلاً ؟

- عظيم ، بجانب غيره من الأشياء .

- شرائح لحم العجل مع الفطر ؟

- مقبول جداً .

- بم تحتفلان ؟

انقبض قلبها قليلاً وهي تسأله سؤالاً فيه شيء من الهزء . هل سيحتفل بفراقها الوشيك ؟

- سآتي لك بشراب منشط ولذيذ . قال روسي ان لونك شاحب ويعتقد بأن اقامتك في الفيلا ستفيدك . من يطبخ العشاء ، انت ؟

- نعم يا سنيور . منحت املكار اجازة هذا المساء .

- افهم من هذا انك تودين البقاء معي ؟

- لا . مجرد رغبة مني في اختبار الفرن الكهربائي المدهش . هل اتوقع قدومك في خلال ساعة من الآن ؟

- نعم . الا تعارضين اذا دعوت للعشاء ابرز مدير افلام في ايطاليا ؟ الا تعتبرين ذلك كثيراً عليك ؟

- لست مقعدة يا روداري . انا في حال طيبة وآن الأوان لاتعرف الى هذا الرجل الشهير . هل هو ضخم وهادر مثل اورسون ولز ؟

- انتظري تري . وداعاً الآن .

سمعته يضحك قبل أن يعيد السماعة الى مكانها . وظلت إلفي صامتة برهة وجيزة . لانشياني وعشاء ، وفراق قريب لعدة اسابيع . دقت الساعة وعادت الى واقعها . عليها الآن البدء بتحضير المليون وصلصة الزبدة ومكان لشخص ثالث . . .

٩ - في سبيل الحب

سمعت إلفي المفتاح يدور في قفل الباب الأمامي وتوترت استعداداً لتلاقي هذا المدير الواسع الشهرة والذي تطلق من الممثلة الانكليزية المعروفة بعد زواج دام سبع سنوات . وتعرف إلفي ان نظرة رجال السينما الى الزواج سوداء كنظرتهم الى الحب ويعتبرون ان العيش مدة سبع سنوات مع المرأة ذاتها لهو عمل فذ .

فتح باب الصالون الصغير ودخل روداري ووجّه نظره اليها وهي واقفة عند نافذة الشرفة تتطلع الى روما في ضوء الغسق . بدا كان فستانها يعكس السماء في مثل هذا الوقت من المساء بلونه الرمادي الناعم المخلوط بلمسات بنفسجية خفيفة وبلمعان الياقوت واللؤلؤ . وزاد من صفاء عينيها تسريحة شعرها واضفى على وجهها احمر الشفاه القرمزي لفحة من البهجة .

- ها قد اتينا يا عزيزتي .

بدا الانشراح على وجه روداري لدى رؤيته زوجته .

- تفضل بالدخول يا نيكولا . اعرفك بزوجتي .

دخل نيكولا الغرفة بتمهل . قدّرت عمره بعمر روداري ودهشت لأول وهلة للتشابه بينهما مع خلاف في لون بشرة نيكولا الفاتحة المائلة الى الزيتوني الخفيف كأهل جنوب ايطاليا . له نظرة لاتينية صريحة في عينين مستوضحتين وله فم شبه مقوّس فوق ذقن مشقوقة . كان لابساً طقماً صيفياً انيقاً ويحمل في يده عناقيد عنب ارجوانية اللون . قال نيكولا :

- اشتريت عنباً . ليتني اشتريت دراقاً . . . ارجو ان تكوني استعدت كامل صحتك بعد حادثة امس ؟

تدلّ ابتسامته على الوثوق من نفسه ومظهره جميل بلا شك ، ولكنها شعرت فوراً بنزعة استعداء له . بدا لها كأنها نظرت من خلال مرآة سوداء ورأت انعكاساً مشؤوماً لروداري . كان الانطباع فيها قوياً لدرجة انها تراجعت قليلاً لحظة تناول يدها ليقبلها كمن يحاول تفادي لسعة أفعى .

- انت محق يا صديقي . عروسك الانكليزية خجولة . . . مني على الأقل .

نظر روداري الى زوجته نظرة تسلية جزئياً ثم فضول . فانه يرى النساء والمولعات بالأفلام يرتبكن امام شريكه ولكنه صعق لما لاحظ نظرة الاستعداء في عيني إلفي .

- سأضع هذه هنا .

وضع لانشياني العنب بجانب زجاجة الشراب التي اتى بها روداري لزوجته .

- شكراً .

ارغمت إلفي نفسها لتجيب بحرارة :

- اريد أن ألقي نظرة على الفرن . سيجهز العشاء في أي لحظة .

اسرعت الى المطبخ وأحست بنبضات مريعة وبشيء من الخوف وهي تتفحص محتويات الفرن . كانت تتصوّر هذا المدير بحجم دببة الأطفال الكبيرة وصاحب صوت جهوري وعبقرية واسعة . لكن الغريب انه يشبه روداري في بعض ملامحه . شكرت المولى على أن زوجها لا يربي سالفين مثله ولا يلبس خاتماً في كل يد .

كانوا جالسين على الشرفة عندما عادت الى الصالون الصغير . ناداها روداري :

- تعالي وانظري الشمس تغيب الآن والسماء ولمحة جمال . . .

حاولت أن تضبط اعصابها فعادت وانضمت الى الرجلين في الشرفة التي تبدو معلقة فوق حلبة روما التاريخية . يشبه غروب الشمس فوق روما ناراً عتيقة ، شعلة من غطاء ارجواني يكتسح بأطرافه القبب والأبراج التي تبدو ظلالاً سوداء شامخة نحو السماء في ضوء شمس يتلاشى في أبهة المجد .

احست بلمسة روداري على معصمها ولما رفعت نظرها اليه رأت ملامحه الجانبية مرسومة واضحة على لوحة السماء . قال زوجها :

- تشبه روما مسرحاً كبيراً معداً لتمثيلية . السماء ستارة ونحن الممثلون فيه .

- هذا المكان مثالي لسكنى مؤقتة (قال لانشياني) الشرفات تثير الذكريات وشرفة مطلة على روما تبقى رومانطيقية ، وتذكرنا بروميو وجولييت ، وبدانتي الذي سحره وجه ساحر لفتاة شابة . من المؤسف انك تمتهن الكتابة يا روداري . ان الدم الارستوقراطي الذي يجري في عروقك وسحرك القاتل سيجعلان مني في الفيلم قطعة نقدية على شباك التذاكر .

- لا تقلق يا نيكولا . ستصبح مليونيراً قبل سن الأربعين ولن يشكو اهل نابولي ابداً من ان اولادهم لا يبنون لانفسهم اسماً أو ثروة . لكن هل تقارن قطعة نقود بغروب شمس مجيد ... بضحكة ترن في هدوء الليل ... وبنظرة تشع من عينين ... أو بشراع يتهادى بين البحر والسماء ؟

ثبت لانشياني نظره على إلفي واحست كأنه طعنها في صدرها في الظلام وقال :

-لا سموات ولا بحار . ليست لي تلك المناعة يا سنيورا ضد هذا السحر الصارخ ، واسمحي لي بأن اهنئك على ثوبك . انه في بساطة كوشاح حورية في عين ماء لا تخشى أن تتعرى منه ... والأشياء التي بهذه البساطة تكلف غالياً .

وعلى الفور وبطريقة لبقة ولكن خطرة قصد لانشياني ادخال راف ستيفانو في الجو . قال انه عاد امس مع راف الى روما وانه يعلم انه مصمم ازياء في مؤسسة اداليا حيث يوصي روداري ثياب امرأته بحكم الصداقة التي تربطه بصاحبة المؤسسة .

عند هذا ضغط روداري بأصابعه على معصم إلفي وأرخاها بعد ذلك فنسيت الألم الخفيف الذي أحست به . قال روداري :

- لنذهب الى المائدة . فقد غابت الشمس الآن .

نعم . اختفت الشمس وغطى الظلام روما فأخذت الأنوار تتراقص هنا وهناك وتشع وتتلألأ في شوارعها . وأخذ الناس يتوافدون على المقاهي والحدائق ويتناولون طعامهم وشرابهم . وانسحبت إلفي واستعدت لتقديم

طعام العشاء الذي فقدت كل شهية له . كان الجو مرحاً في الظاهر على الأقل لكن طغى عليه جو التوتر الباطني . وفاجأت إلفي لانشياني وهو يحدق فيها اكثر من مرة وتهدل شعره الأسود على جبينه الزيتوني اللون وشرب نخبها عند نهاية العشاء قائلاً :

- نخب عينيك يا سنيورا . لعينيك لون العنبر .

عندما دخلوا الصالون الصغير لتناول القهوة اخذ لانشياني يجوس في انحاء الغرفة كالفهد .

- قهوتك يا سنيور .

- شكراً (وتفرس في عينيها وأضاف) لماذا لا تناديني نيكولا ؟ كل الناس يدعونني بهذا الاسم ... أوه ، تقريباً كل الناس . وأفضله على اسمي الشخصي روبيرتو (ضحك معتبراً هذا مزحة شخصية) لا يوافقني ان يخلط الناس بيني وبين نجم الأفلام الايطالية الآخر . هيا ادعيني نيكولا .

- حان لك أن تعرف ان النساء الانكليزيات يترددن كثيراً في رفع الكلفة مع شخص يتعرفن عليه لأول مرة . لزمها اسبوع لتناديني روداري في فندق الألب عندما تعرفنا ولا تستطيع حتى الآن أن تعتاد على مناداتي بداري .

- كلا (قالت وهوت نحوها على الديوان) اني افضل كلمة روداري اذ أراه اكثر ملاءمة لك من الاسم المصغر . وداري اسم صبياني .

- ولكن عاطفي وحنون (اضاف لانشياني) هل يوحي زوجك اليك بالخوف والاحترام ؟

- اني احني رأسي يا سنيور لكل شخص موهوب . عندما عملت في أحد المستشفيات لأول مرة كنت اندهش لألمعية الأطباء الجراحين . وكما قالت امرأة شابة مريضة ، ليس شبابهم الذي يخيف بل حذقهم . وأحياناً أفكر في أن العظام من الكتاب يشرحون بنفس طريقة الجراحين .

- مقارنتك تحليلية .

جلس روداري على كرسي عريض من الجلد وسوّى ثنية بنطلونه الأنيق وهو ينظر الى إلفي نظرة ساخرة . وردت على كلمته محتجة :

- آوه ، كلا . انا لا اعني ... المسألة انك تستطيع ان تفتت القلب بكلماتك كما يشرحه الطبيب بالمبضع . والجراحون في معظمهم ليسوا

عديمي الاحساس أو الشفقة . تعرّفت على جرّاح مدهش في المستشفى الوطني للقلب . كان دائماً يخصص جزءاً من وقته لتمضية بضع دقائق في حديث ودّي مع مرضاه الذين كانوا يحبونه بطبيعة الحال .

- اسمعت يا داري ؟ ليست عروساً لك بل معجبة كبيرة بك .

التفتت إلفي الى لانشياني عندما استبانت رنّة ساخرة في صوته ام دلالة على الغيرة من روداري الذي برغم نقائصه لا يسع النساء الا ان يحببنه . ولما وجه هذا الجنوبي نظره اليها اخفضت عينيها لتخفي نفورها منه . ريشه روداري . . .

قد يتصرف روداري بشراسة احياناً . . . ولكن غريزتها تقول لها بأن لانشياني اسوأ منه بكثير . كلاهما موهوبان ولكنهما يستوحيان من منبعين مختلفين . فان مدير الأفلام متأصل من ازقة نابولي ، وكونه ماهراً وداهية ومغامراً قد يستغل غيره ليكتسب الممتلكات والجوائز التي يتلذذ بها بالاضافة الى الشهرة والثروة والجمال والتألق . كل هذا يكوّن مملكته . فاما ان يرفعه عالياً في الأضواء أو أن ينزله الى الحضيض .

تمنت لو يرحل وتشوّقت لسماع صوته يقول انه يجب أن يذهب ، الا انه تابع الحديث عن نفسه وعن الأفلام التي عملها والتي تكلمت بجرأة عن حقيقة تجنبها صانعو افلام أقل جرأة منه . وتابع لانشياني حديثه قائلاً :

- الحب ، جزء مقوّم اساسي للحياة والأفلام على السواء ، ليس انفعالاً عاطفياً ، انه جوهري .

مد ذراعه في محاذاة قمة ظهر الأريكة الجلدية وجاست اصابعه السلسة قريباً جداً من كتف إلفي وظل يتكلم متابعاً موضوعه :

- يفاجئنا كالعاصفة . وقد يدوم اياماً وأحياناً سنوات ، أو الحياة بطولها أو حتى ليلة واحدة . ولكن ، ويا للسماء ، لا يحق لأي رجل أو امرأة المطالبة بتسام كامل منذ اللحظة التي يبدأ فيها حتى يتلاشى والا يصبح ذلك مطلق عبودية .

- هذا يتطلب حباً كاملاً يا صديقي مشابهاً لحب الراهبة لدعوتها ليس لكل واحد الشجاعة الكافية ليعطي بهذا المقدار ولكن العالم لا يخلو من محبين من هذا النوع . نعم ، وبالرغم من اعتقادك البديهي يا نيكولا بالحب من اجل المتعة .

- المتعة يا صديقي ، المتعة ، مليون مرة اكثر من ثوب الراهب الخشن وحجارة الأديرة .

ضحك لانشياني وانكمشت إلفي من جراء لمس رقبتها بأطراف اصابعه . اصابتها حالة عصبية وشعور بالتوتر وكادت تصرخ في وجهه انه غير مرغوب فيه في بيتها . . . ولكنه صديق روداري وهي ليست سوى تلك الزوجة الشابة التي ستبقى في كورفينا في غياب زوجها خلال تصوير الأفلام مع لانشياني في جزيرة صقلية .

قدم لانشياني العنب لإلفي التي كانت قد رتبته في صحن اصولاً بحسن الضيافة قائلاً :

- يجب أن تأكلي شيئاً من العنب . لا ترفضي طلبي والا اعتقدت بأنك تصدقين الاسطورة القائلة ان الشيطان موجود في كل بزرة من حبات العنب . ربما هو موجود . الا ترين اغراء لونها . . . كشفاه المرأة ؟

- لك مطلق الحرية في أن تأكل منه ما تشاء يا سنيور .

- الا تفضلين تسميتي بنيكولا ؟

اومضت عيناه عندما قذف بحبة عنب في فمه وهو يضحك قائلاً :

- لدينا سحر وعنب ولكن بلا موسيقى . ولماذا لا تسلينا يا روداري وتغني لنا ؟ هل علمت يا إلفي ان زوجك غنى في البندقية أثناء تصوير فيلم « الأميرة كابريس » ؟ قل لي يا صديقي ، هل تنوي كتابة تكملة لتلك القصة ؟ أنت لنا القصة بنجاح كبير ، أتذكر ذلك ؟ الحقيقة اننا تقدنا بريشنا في النهاية المأسوية لقصة الحب تلك .

- يمكن اعطاء الخاتمة نهاية اكثر اشراقاً .

رأت إلفي زوجها يبتسم ولكن تعبير عينيه كشف عن حزن صبياني يكاد يرسل الدموع من عينيه سبّب لها كآبة جسيمة . البندقية . . . اغاني الحب في الجندول . . . امرأة جميلة تعرف انها ستتزوج برجل آخر . . . برجل وعدوها له منذ طفولتها حسب التقاليد اللاتينية . اتوجد قصة اكثر اثارة للمشاعر ؟

- هيا يا روداري . لست من النوع الخجول . غنّ لنا « سلطان القدر » . البيانو موجود ولطالما غنيت لنا في حفلات في الاستوديو واني واثق ان زوجتك ستتمتع بالأغنية . وعمق تبصرها بالأمور يجعلها تؤمن

بحتمية القدر وسطوته وبدموع الحياة ومخاوفها .

ونظر اليها ليلفت انتباهها وبدا لها ان عينيه السوداوين تقولان لها :

- كان يوم امس من ايام القدر . ألم يكن مكتوباً ؟ ولو كنت وحدك لغرقت وقضيت .

- غنّ يا روداري (توسلت إلفي اليه) ارجوك . لم اسمعك تغني جدياً الا بتقطع في الحمام حيث يبدو صوتك كصوت ثور يتعثر في الماء .

- ألف شكر (اجاب زوجها) كلا . ليس لي صوت هذه الليلة والوقت متأخر . ثم يبدو عليك التعب . وحان أن تذهب الى بيتك يا نيكولا .

- الى شقتي الخاوية على السطح ؟ (عبس وجهه محزوناً) هل سمعت آخر طرفة يا صديقي ؟ اني ما زلت افتقد تلك المرأة الحمراء الشعر والعاطفة التي ساء حظي ان اتزوجها . لها سحر لعين . . . كان يجب حرقها لهجرها اياي .

علق روداري قائلاً :

- ظننت ان الحب اسطورة وعبودية ، اليس كذلك ؟

- كلا . انه جحيم من الشهوات . هذا كل ما هنالك . كنت اكره تلك المخلوقة ، ولكن حاجتي اليها تسبب لي ألماً في كل قطعة من جسمي .

نهض لانشياني متكاسلاً وسوّى ربطة عنقه وملس شعره وبدا كطفل كبير ساخط من نفسه لأنه حطم لعبته المفضلة . والتفت الى إلفي وقال :

- انا شاكر لك لأنك تحملتني . كان عشاؤك ممتازاً واني معجب بك رغم اني لم اعجبك . انه لشيء غريب حقاً أن يدرك الانسان هذه الأشياء بحسه . ولكن ، هل تسمحين لي . . . ان اقول ما تذكرني به عيناك ؟

- شرط أن يكون هذا الشيء زهرة الربيع (ردت عليه بحزم) اصبح هذا القول مأثوراً يوجه لكل خجولة ووجلة .

- خجولة ؟ عروس فورتوناتو خجولة ؟ اسمعي هذا :

على طول الدرب الهادىء مشى

الفجر بخفين من فضة سرى

كفتاة بالرعب قلبها ابتلى

هكذا تبدين لي في فم الشاعر أوسكار وايلد .

وقف روداري ويده في جيب سترته وقال :

- لا تتعب ، ولا تصب دهاءك على إلفي . انها لا تطمح في أن تصبح نجمة سينمائية .

- هذه خسارة يؤسف لها . في عينيها شيء من موناليزا ومقدار من غريتا غاربو عدا ما فيهما من أسرار تميزها . ستبدع في دور هيلويز أو بياتريس . بياتريس على الجسر حيث مرّ دانتي الانسان الغالي واكتنفه الحب الخالد .

مشى نحو الباب وقال :

- طابت ليلتك يا سنيورا . من المؤسف حقاً انك لن ترافقينا الى صقلية .

وقفت إلفي تتطلع الى الباب الذي خرج منه لانشياني وسمعته يسير نحو الباب الرئيسي . كانت رائحة دخان السيكار تملأ الغرفة ومقاطع من الحديث ترن في اذنيها تاركة بصماتها فيها . وفجأة شعرت باعياء عاطفي فارتمت بين الوسائد على الأريكة . استسلمت لتعبها وانتظرت روداري ولكنها لم تشعر بالقوة لتطلب منه اخذها الى صقلية . لن تستطيع أن تناشده ومع ذلك فانها تحس بأن شيئاً ما سيحدث لزواجهما ويكاد يكون هذا الشيء ملموساً وهو كالألم يمزق قلبها ويقطع اوصالها . كانت اعصابها تصرخ لان ياخذها روداري ولكن عندما عاد الى الصالون الصغير وجدها متكومة بين الوسائد بلا حراك كدمية يلهو بها ويضعها على الرف عندما ينهمك بأشياء اكثر جدية في الحياة من حيوان بيتي مدلل ينساه في الحال .

وقف قربها وهو ينظر اليها مبتسماً :

- اكتشفت ان نيكولا أبعد من أن يحب ، ايه ؟

- انه متعاظم بنفسه نوعاً ما . هل لفت احدهم نظرك الى الشبه بينكما ولو بشكل مزخرف ؟

- الكثيرون من الايطاليين يتشابهون خاصة بسواد الشعر والعينين وبطريقة نظرتهم الى المرأة . هل يضيرك تقدير الذكر الايطالي لاختلاف المرأة الكلي عن الرجل ؟ انها نقيضه جسماً وروحاً واحساساً وفي الوقت نفسه نظيرته واكماله ورفاهيته وسلواه .

- يبدو مديرك شخصاً كثير الاضطراب والارتباك . هل هذا ما يدفعك الى منحه صداقتك يا روداري ؟ وأرى انه اسهل عليه خلق اعداء له من كسب اصدقاء . خذ مثلاً طريقة كلامه عن امرأته . تكلم كأنها ملكه وانه

لن يغفر لها جرأتها في التخلي عنه . من المؤكد انها تلاحما كتمرين مفترسين .

- نعم ، ولذا يجب ابقاؤه ضمن حدود الهدوء . ولكن له عبقرية لدرجة ما في اساليبه ، ولي اسبابي الخاصة لدعوته الى بيتي وذلك لانه لم يعد يؤمن بوجود الصلاح والطيبة والسعادة لأن أليس هجرته بهذه الطريقة ، وأملي هو أن يدرك الصواب قبل فوات الأوان .

- ولكن يظهر ان كل ما يبتغيه هو المال . وقلت انت نفسك انه سيصبح مليونيراً قبل سن الأربعين

- قد يحدث ذلك له .

- اي أن يتزوج ؟ (ضحكت إلفي لهذه الفكرة) ربما مع احدى الفتيات اللواتي تبهرهن الأفلام . يكفي النظر اليه يا روداري لترى الشيطان متجسداً فيه .

- ولكن الشيطان فيّ انا ايضاً . انت قلت لي ذلك في اكثر من مناسبة .

جلس روداري بجانبها على الأريكة ووضع ذراعه حول جسمها النحيل وثبت عينيه السوداوين في عينيها ورأت في سوادها الحالك شعلة ناعمة ومتوهجة .

جالت بعينيها على وجهه المتسلط ولم تر فيه أثراً للغرور والانغماس في الأهواء والبخل كما رأت في وجه لانشياني . واما شيطان روداري فهو مرتبط بكاميلا . . . بحب تحطم ودفعه الى نكرليتا . قالت إلفي :

- انت ناعم وغامض يا روداري . وانا لا اعرف من أنت وما أنت ، اعرف لمسك وقبلاتك أو غضبك عندما ارتكب شيئاً كالغرق .

- مسكينة انت . دعيني اصلح اخطائي . أنت ناعمة وحرّ صقلية قد لا تتحملينه يا إلفي . . . إلفي ؟

- نعم يا روداري ؟

ابتعد قليلاً عنها ولم يمسّها . نظر اليها فقط . ونظرته كهربتها . احست فيه بتناقضات طبيعته وشهواته الحارة . . واهتزازات قلبه بقدر ما احست بنبضاته . احمر وجهها وهو يتطلع اليها . . . هل ظن ان الدكتور روسي وجد انها حامل ؟

- لا تخفي عني اسراراً يا إلفي .

- انت اللذي كلك اسرار يا سنيور .

- انا من الجنس اللاتيني وأكبرك سناً . انا زوجك .

- وعليّ أن اتلقى اوامرك ؟

- هل اوامري قاسية جداً ؟ واذا ابقيتك في كورفينا فذلك لخيرك .

والآن اريد أن أقدم لك هذا .

اخرج شيئاً من جيبه وأحست بأطراف اصابعه الدافئة وقال :

- ابقي كما انت ريثما آتي بمرآة .

انزل عن الحائط مرآة فينيسية مزخرفة ورفعها امامها بحيث تتمكن من رؤية نفسها متكئة كعبدة يملكها تتدلى من اذنيها قرطان من الياقوت المرصع بتخريم دقيق من الذهب الخالص العتيق الابطالي الصنع والهندسة .

- اوه .

شهقت مذهولة ولمستها بأصابعها :

- جميلة حقاً وحيّة كشعلات صغيرة . انك مسرف لحد الجنون يا روداري ولكني احبها فعلاً .

- انها تليق بك وتنسجم مع جلدك الأبيض .

وضع المرآة جانباً واقترب منها وأحست بيديه القويتين كما احست بلمسته تخترق جسمها حتى العظم وأعطت نفسها انطباعاً بانه قد يعصرها ويدفعها الى الصراخ كما يصرخ المعذبون في لحظات النزاع . وما عساه يسمع عندئذ ؟ سيسمع صرخة نابعة من روحها تطلب اليه أن يعترف أو أن يفكر أن له ابناً من فتاة اخرى .

- كيف ستشكرينني ؟

طوقها بذراع فولاذية وتابع يقول :

- هيا يا فتاتي ، ماذا ستعطيني بالمقابل ؟

كانت جالسة متكئة برأسها على ذراعه ووجهه امام وجهها يكاد يلتصق به ويمتلكه الى درجة اخافتها . لم تدرك قبل الآن ان الحب قوة حيّة تفوق العقل والشك والوعي . انه ادخلها حياته لأنه انسان انفعالي لا يستطيع العيش وحده . وكانت يدها المحملة بخاتمه موجودة على صدره فوق القلب الذي كانت نبضاته تصل الى اطراف اصابعها . ورغم هذا القرب فان

كاميلا واقفة حائلاً بينهما .

- ما تحب أن اقدم لك ؟ لا املك نقوداً واذواقك متنوعة يا مستيور .

نظر ملياً اليها وقطب حاجبيه وقال :

- لا اطلب منك شيئاً يشترى بالمال .

- لكنك تقدم اشياء تشترى ، احسن الثياب ومجوهرات خيالية وغرفة مؤثثة بأحسن اثاث . لم تشعر ابداً ... بالحاجة الى شراء عروس .

- الا اقدم لك كل ما تشتهيه المرأة ؟

- اشياء مادية .

- اعترفي بانك لا تسرّين اذا نظرت امرأة ما باعجاب الى ثوبك ومجوهراتك .

- والى زوجي ؟

- اظن بانك تحبين احياناً كونك عروس لفورتوناتو .

- لا تكن قاسياً يا روداري .

- وهل هذا قاسٍ ؟

تملصت منه . لا تريد الاستسلام لمرارة هذه الحلاوة ... لا تريد أن تتقاسمه مع الاخريات .

- لا ... لا ... لا تلمسني يا روداري .

ابتعد عنها وقدحت عيناه ناراً وهو يتفرّس في وجهها المتألم وقال غاضباً :

- ألم يعد في استطاعتك أن تدفعي لي مقابل ما أقدمه لك ؟ يا ملاكي المعذّب ، لا تنظري اليّ هكذا . تعزّي لأني سأبتعد عنك مدة اسبوعين كاملين ... وعلى هذا قد تذهب غداً الى كورفينا وهكذا تتحررين من وجودك وحدك معي عدا هذه الليلة . وقد خطر لي ان اذهب الآن وأعمل في مكتبي .

نهض وزرر سترته وقال بعدما نظر الى ساعته :

- اذهبي الى الفراش يا عزيزتي وحاولي أن تنامي . طابت ليلتك .

استدار وخرج من الصالون وسمعته يغلق باب مكتبه وتبع ذلك هدوء تام . أحست بدموع ساخنة تسيل من عينيها وحاولت ايقافها . وأحست بقلبها يتألم وشعرت بشيء يدفعها للركض اليه كي تكلمه عن الحقيقة المؤلمة المرّة . ليست لمساته التي لا تتحملها ، بل حيرتها فيما اذا كان الحب

الذي تمنحه له انما تمنحه لعشيق نكولينا !

رتبت الوسادات على الأريكة وحملت الصينية وتوابعها وذهبت الى المطبخ حيث غسلت كل شيء وأعادته الى مكانه وألقت بنظرة حول المطبخ لتتأكد من ان املكار سيجد كل شيء كما يجب . ومرت من امام المكتب وهي ذاهبة الى غرفتها ولكنها لم تسمع صوت الآلة الكاتبة . توقفت عند الباب ورأت روداري في مخيلتها واقفاً بأنفة امام النافذة ينظر الى السماء ويناجي النجوم التي تغمز بعيونها الذهبية وتتلألأ ثم تتناعس . ام هو الآن مسترخ في كرسيه الجلدي العريض الذي جلست فيه مرّة ورأت نفسها نقطة صغيرة بالنسبة الى حجمه ؟ تعرف الغرفة بكل تفاصيلها حيث يكتب مؤلفاته الشهيرة .

من موجودات مكتبه المكتب الايطالي الضخم والمصباح الزجاجي الياقوتي اللون المنتصب في احدى الزوايا يقابله في زاوية اخرى كأس من عصر بورجيا له جانب لامع وله فتحة يصب منه المتآمر بضع قطرات من السم . وعلى المكتب آلة كاتبة بغطاء من جلد التمساح جاهزة للاستعمال . وبالاضافة الى ذلك رسوم تزيّن جدران الغرفة تسر لها العين . الغرفة بسيطة جداً ولكن حلوة بما فيها من خزائن عتيقة مرصعة بالنحاس الذهبي تحتوي على ملفاته وتدويناته ، ويكتمل جمال الغرفة بالسجادة العريضة المنسجمة لوناً مع الستائر القرمزية .

روداري مولع ببيئة كهذه وهو يحتاج اليها . انها جزء من طبيعته التي تنم عن ميزة خاصة فيه وسلطان وسطوة طبيعيين والمعية فكرية . ولا تنكر انها تهتز وتسحر عندما يطوقها بين ذراعيه فتنسى كل شيء .

الا ان مواهبه هذه خطرة لأنها تدفع بالناس الى حبه وتغاضيهم عن هفواته وعلى الفتى الآن أن تجد القوة والشجاعة الكافية لأن تسأله ـ ربما لدى عودته من صقلية ـ عن طفل نكولينا ذي الرموش السوداء والتجويفة في وسط ذقنه !

١٠ ـ فجأة قبل طلوع الضوء

سارت بهما السيارة في المقاطعة السابينية حيث البرّ اللطيف الشاسع وراء مدينة روما وحيث نبات اللفت يلمع كالنحاس في ضوء الشمس وتعج الأخاديد وجداول الماء بالأزهار . اما صفاء النهار فبدا ذهبياً ومبهجاً بالكروم وبساتين الزيتون . امتلأ الهواء بعبير الصيف وتطاير شعر إلفي حول رأسها لأن السيارة كانت مكشوفة . ودلت زرقة السماء ونقاوته على طقس جميل سيدوم بضعة ايام .

سيكون نهارها خاوياً ولكن ليلها أقل فراغاً لأن روداري سيكون غائباً من فيلا كورفينا . القت نظرة على يديه الممسكتين بالمقود . اظافره مقلمة ونظيفة ولا أثر لأي خاتم في اصابعه . وسرت في جسمها رجفة خفيفة لأن هاتين اليدين الجميلتين القاسيتين اختبرتاها بقوتها ولم تأسف لذلك . ألم يهمس في اذنها بلغته الايطالية التي تتعلمها ان لها جلداً بنعومة الحرير ؟ ولكن الم يهمس ايضاً مرات ومرات العبارات ذاتها في اذان غيرها من النساء ؟ وكم من مرة اهتزت النسوة بلمساته وتملقه؟

وبحركة عصبية شدّت إلفي على سلسلة جزدانها ونظرت الى جانب وجهه ووجدته جامداً وبعيداً . تذكرت عندما عبرا مقاطعة توسكانا يوم زفافهما، وكيف تملكها الخوف من المستقبل حينذاك كذلك تملكها الآن . فقط لو تستطيع أن تصرّح بالأسئلة المستحوذة على ذهنها : من منا يا روداري تستطيع أن تجلب لك السعادة الحقيقية ؟ أهي الكونتيسة التي وقعت في حبها في مدينة البندقية ؟ أم فتاة الجزيرة الفاتنة التي وجدتها في روما ؟ أم الممرضة الانكليزية التي تعرّفت عليها في جبال الألب والتي بدت لك

في وجلها غير عادية والتي نفرت منك عندما لمستها لأول مرة؟ تلك التي حاولت الفرار منك فلحقت بها وأمسكت بها وأحست بقوة عضلاتك مثل ابولو وهو يطارد الحورية في مكان لا ملجأ تختبىء فيه .

وفقط عندما لاحظ روداري ابتسامة خفيفة على شفتيها لم تستطع مقاومتها ألقى نظرة عجل عليها ولكن بدون أن يلتفت اليها وفاجأها بسؤاله :

ـ لماذا تبتسمين؟ هل تتأملين والفرح يملأ قلبك في غياب زوجك؟

ـ كلا . . . صدقني ، سأفتقدك .

ـ ارجو انك لن تتصرفي مندفعة كالطفل مرة اخرى . وصقلية أبعد من كورفينا عن روما وقد يغريك هذا .

ـ اني متأكدة من أن جدتك ستسهر عليّ بعين النسر . ويدلني احساسي بأن جدتك اكثر صرامة منك في حراسة أفراد العائلة .

ـ هل ممكن أن افهم سبب شعورك هذا؟

ـ الكونتيسة امرأة، وانت يا سنيور رجل بلا ادنى شك .

ـ اراك ثرثارة يا عزيزتي وفي يقيني انك تتوقين من كل قلبك الى غيابي . . . لا تحاولي انكار ذلك والليلة الماضية دليل على ذلك . كونك فتاة انكليزية تنفرين من سيطرة الغير عليك . ربّتك بيئتك على عدم الاستسلام الكلي للرجل، فانك تكرهين بعض عاداتي اللاتينية مثلاً . ولك اراء واحساسات وأسرار لا ترغبين في أن اشاركك فيها ولذا أرى من اللزوم أن اتقبل طرقك واحترم تحفظاتك . وأرجو أن تسامحيني اذا كنت فقدت صبري معك احياناً . هناك اعتقاد عند كل لاتيني تقريباً بأن على الآخرين ان يهووا ما هو له .

ـ مثل هذه السيارة المندفعة يا روداري؟ انا اعرف اني من هذه الفئة وعلى نفس مستوى الأراضي الشاسعة التي تقوم عليها فيلا كورفينا أو بالأحرى على خرائب احدى المزارع السابينية التي نهبها الرومانيون الذين كانوا يشبهونك ويسلكون مسلكك .

ـ لا افهم ما تعنين بانتهاجهم مسلكاً كمسلكي .

ـ قرأت كتب التاريخ يا روداري . اختطف الرومان الفتيات السابينيات كالدجاج وسخروا من مقاومتهن الشديدة ومن توسلاتهن . النساء لهن

شعور واحساس، وليس مجرد شيء أو العوبة.

- ارجو الا يأتي اليوم يا عزيزتي (قال روداري ضاحكاً) الذي فيه تنقطع النساء عن تقديم التسلية والمتعة. وكل كلام عن المساواة بين الرجل والمرأة هراء. كيف يمكن للمرأة أن تكون مساوية للرجل وهي صاحبة الفتنة والجمال؟ وهي صاحبة القوة التي بابتساماتها تثير المشاعر؟

المساواة؟ لا يوجد شيء كهذا ولن يوجد. المرأة تحمل سرّ الحياة في جسدها واذا لاحقها الرجل واستولى عليها فانه يريد ديمومة الحياة. هذه غريزته البدائية... واذا صحت كتب التاريخ فقد تعلقت النسوة السابينيات بمختطفيهن المحاربين الرومان ولم يعدن الى المزارع ليعتنين بالماشية.

دخلت السيارة الآن طريقاً برياً جانبياً وعراً، يعبر حقولاً مزروعة ويبدو انه ملك خاص. بقيت إلفي ملجومة اللسان بقوة اقناعه ولكن في لحظة فقط تفجرت في ذهنها معاني كلماته بكاملها. هل وقف في رهبة بجانب السرير كما قال عندما رأى طفلاً شبيهاً له يولد من فتاة عادية حطم قلبها؟ أحست إلفي بقلبها يرف كجناحي عصفور حبيس.

دخلت السيارة طريقاً ترتفع التلال على جانبيه معشوشبة بالحشائش البرية، ومزركشة بانواع الأزهار المنثورة هنا وهناك. لم يعكر الهدوء حولها سوى طنين اجراس الماعز من حين لآخر ومحرك السيارة طبعاً. هذه هي المشاهد التي رسمها عظماء الرسامين الايطاليين، مشاهد لم تؤثر فيها السنوات ولا حتى الأجيال. وفي هذه الحقول بالذات تشتت النساء السابينيات فارّات من الجنود الذين اختطفوهن بلا رحمة من بيوتهن الريفية وحملوهن الى خيامهم حيث الدروع والسيوف.

تلوّن هذا المشهد الريفي بلوني الفضة والتبي وكونت أشجار الكستناء حدوداً فاصلة بين المزارع ذات القرميد الأحمر والمصاريع الخشبية المدهونة والأقواس حيث تقوم حظائر الحيوانات والسلالم الحجرية المؤدية الى غرف العائلة. كيف لا تثير هذه الأبنية التاريخية القديمة الذكريات؟

رأت إلفي نبات الزنبق البروقي منتشراً في كل مكان ازرق ومزدهراً

ولكن افكارها كانت في هذا الطقس البديع معتمة معذبة.

دخلت السيارة الطريق المؤدي الى فيلا كورفينا تظلله اشجار السرو الشامخة الواقفة هناك كأنها صف من الحرس كما رمزت اليه إلفي في ذهنها. وفجأة اتت السيارة امام الفيلا بعد آخر منعطف. وجدت إلفي جلالاً فيها وجمالاً ايطالياً هادئاً، آلمها في صميم قلبها لأنها اثارت فيها احساساً كانت قد اقسمت على تفادي الشعور به اذ حطمت هذا القسم الذي اخذته على نفسها على الا تحب شيئاً غير هذا الرجل الشيطاني الوقح الذي بجاذبيته الفذة يصبح قانوناً وشرعاً مطاعاً. هذا الرجل الذي يتقبل ويرذل كما يشاء ويتحدث ويكتب كالملائكة ولكن بدون أن يلتزم بأي شيء يكتب عنه.

توقفت السيارة عند قاعدة الدرج الحجري وشعرت إلفي بضيق في التنفس في هذا الطقس الهادىء الحار.

التفت روداري وتطلع فيها. كان وسيماً وانيقاً، واثقاً من نفسه، عالماً بالأمور الدنيوية. انه زوجها وتريد أن تكرهه ولكن احساسها يغدر بها فيتغلب عليها. تريد أن تضربه لأنه يجعلها تحبه بقدر ما تكرهه. تريد انتزاع كل الحقيقة منه وكل ما هو دفين في قلبه. انقطع حبل افكارها عندما احست بيده تأخذها من يدها فعادت كلماتها من حيث اتت.

- لا تنظري الى هذا البيت كأنه سجن. ستصل هلين بعد بضع دقائق لترحّب بنا. اظهري سرورك بوجودك هنا.

- هل هذا امر تلقيه عليّ كي اظهر مرحي وفرحي الجنوني؟

- بذلك قصدت فقط الا نجعلهم يعرفون باننا تشاجرنا واني اتركك هنا عقاباً لك، اذ سيؤلم ذلك هلين التي تحبك وسيبهج الكونتيسة ان ترى بشائر نبوءتها مكتوبة في عينيك.

رفع وجهها وتفرّس فيها وهو يعبس ثم قال:

- يبدو لي الآن يا عزيزتي ان عينيك المتمردتين تكرهانني. لماذا؟ الأني اكتشفت انه يمكنك خيانتي مع رجل آخر؟ الأني أوقفت اللعبة التي بدأتها مع الشاب اللوزي العينين؟

- نعم. صحيح ما تقول... راف شاب فاتن. وانقذ حياتي.

- فقط بعد أن كاد يتسبب في موتك، لقد تهوّر عندما دعاك للسباحة.

راف لانتيني وككل لانتيني يعرف تمام المعرفة رد فعل كل زوج ايطالي في ظرف كهذا مهما بلغت درجة براءة واخلاص الزوجة.

- انا ممتنة يا روداري ان تصدق حسن نيتي.

- كوني ممتنة لأني ما زلت اعتقد بذلك.

- افترض انك اتيت بي الى هنا لتحافظ على عفتي وتبعدني عن كل محاولة قد يقوم بها رجل ليلاحقني.

تكلمت بطلاقة مظهرة تألمها لأنه يريد منها مسلكاً ملائكياً بينما مسلكه ونيته بعيدان كل البعد عن رائحة القداسة. سئمت عيناها الواسعتان من النظر الى هذا الشخص الساطي وشعرت بالكره نحو انفعالاتها. كيف تعذب حباً بهذا الرجل وتعرف بانه العاشق السرّي لكاميلا؟ وتعرف انه صاحب الحرف في أسفل الكلمة الموجهة الى نكولينا التي احتفظت بها تحت وسادتها في غرفتها في مقهى الجزيرة؟

- انظري الى البيت (قال روداري آمراً) هل له هيئة السجن؟

يبدو القدم على واجهة المبنى ولكنه جميل، وهو مبني من الحجر الذي اكتسب مع الزمن صبغة الشمس. ويزين واجهة البيت نبات الغوشية الارجوانية والدفل العطرة. اما درابزون السلم والشرفة فهو من الحديد وعلى جانبي الباب المحفور مصباحان كجوهرتين. ومن الأكيد ان هذه الفيلا نعمت بزمان كله حبور ورومانطيقية، والآن تغط في سبات في حرارة الشمس وتتوقع ولكن بدون أمل سماع اصوات المرح وصدى أصوات الشبان وحفيف الفساتين الحريرية والحب الذي يحيي البيوت القديمة منها والحديثة.

ينبع جمال الفيلا من هندستها الباروكية التي سادت في القرن السابع عشر. وللفيلا برج يضفي معنى على سحرها وأعمدة المدخل المسقوف تلفها الكرمة وتتلوى حتى تصل الشرفات وتغطيها بمعطف من خضرة أوراقها.

البيت ليس سجناً بل مسكناً يعصر قلب إلفي لأن حياة الفيلات حلم حياتها ولكن غير تلك التي تنتظرها الآن. كان يجب أن تحبها من النظرة الأولى كما أحبت روداري ذلك الحب الذي خيّب كل آمالها.

- والآن (قال وهو ما زال ممسكاً بذقنها) هل تظنين انني سأقفل عليك في

البرج مع أشغال التطريز لتتسلي بها؟

- لم اتعلم التطريز ابداً.

- حقاً؟ كنت اظن ان كل النساء ماهرات فيه وخاصة في تطريز الحقائق.

ولكنهن يستطعن تفصيل الحرير الى أي نماذج تلائمهن.

- ارجوك. كف عن ذلك.

تملصت منه عندما ظهرت امرأة رشيقة من باب جانبي. كانت هذه هيلين. فأسرعت نحوهما في الباحة لتحيتهما. ترتدي بنطلوناً قاتماً وقميصاً فاتحة. رحبت وابتسامة عريضة تنير وجهها:

- سررنا عندما اتصلت تلفونياً يا روداري. هل انت راحل الى صقلية فوراً؟

- يبدو انك مسرورة بالتخلص مني.

تكلم بجفاء وهو خارج من السيارة ليلف حولها ويخرج حقائب إلفي.

- كلا. ليس هذا. لا اتوق الى بعدك بل يطيب لي أن اكون في رفقة إلفي وانت منشغل بأفلامك في وقت تكون فيه صقلية أقرب الى فرن خاصة بالنسبة الى إلفي القادمة من انكلترا الباردة والخضراء.

ضحكت إلفي وهم يدخلون الفيلا من باب جانبي وقالت:

- نعم انكلترا بقسط من حرارة الشمس التي تصل احياناً حوالى اربع وعشرين درجة مئوية فيشعر الانسان بالحرّ في مستشفيات لندن.

قالت هلين كان بها تريد أن تبرر قرار روداري بتركه زوجته في الفيلا:

- وعلاوة على ذلك، تحدث زلازل في صقلية. والآن يا اختي. ما رأيك في كورفينا؟ تعرف الفيلا بانها من بين اجمل البيوت في ايطاليا. احبها طبعاً، ولكن الحب يجعل المرء يتعامى عن بعض الهفوات. وتسمي جدتي البرج بالطفل غير الشرعي ذلك لأنه كان اصلاً جزءاً من قصر قديم تهدم. وحجر الفيلا والبرج ايطالي وهذا ما جعل لون الحجرين يتشابه، مثل الزوج وامرأته التي تصغره سناً واللذين تمتزج ألوانهما مع مرّ الزمن وتتقارب اذواقهما فتتشابه فتبدو كأنها ذوق واحد.

ادهش هذا القول إلفي. هل تعتقد هلين بأن الزمن سيربطها بروداري فيمتزجان؟ نعم، فهي مخلوقة رومانطيقية وقد تصاب بصدمة لو اطلعت على حقيقة شقيقها ذي النظرات الباهرة وموهبة الكتابة. قد تتشاكس مع

اخيها ولكنها فخورة به وبالأسم الذي اكتسبه في عالم الأدب. والدليل على ذلك الابتسامة التي استقبلته بها والتي اظهرت افتخارها به وحبها له. حزّ هذا المشهد في قلب إلفي وضبطت آنة ألم كانت ستخرج من فمها. كانت تنظر اليه بعينين واسعتين في أول ايام زواجهما وكان افتخارها به بدون حدود بالرغم من ان ركبتيها اصطكتا عندما ركعت بجانبه اثناء الزفاف وتكلّمت مع ذاتها قائلة:

- زوجي. هذا الرجل الطويل المستقيم ذو الشهرة الواسعة تلفظ لتوه باللاتينية بأن له روحاً وجسداً وان عليه أن يحبني... المحبة بكل تأكيد أحلى وأرق كلمة يتلفظ بها انسان.

بهرها البهو الكبير الذي بدا رومانطيقياً مثل واجهة البيت. السقف تغطيه لوحات جصية يبدو انها رسمت بعد حفرها بمهارة لا توجد الا لدى الرسامين الايطاليين ودهنت بطلاء معدني صاف متناسق الألوان. يقف السقف على اعمدة تحملها تماثيل منحوتة وأرض البهو مبلطة بالرخام وعلى جوانب البهو قناطر فيها ارائك منجدة بالقماش المقصّب وأوان ثمينة ومرايا في إطارات مذهبة. وبوجه عام ان الأثر الذي يتركه هذا المظهر مدهش جداً والتحفة الفنية هي السلم المتفرع المصنوع من حديد مصبوب مزركش بأوراق وأزهار متشابكة ومتوج بقبة. والسلم في جملته يشبه قفص عصفور.

وترى إلني نفسها في فستانها الأبيض والوشاح الملتف حول عنقها في غير محلها وسط هذا المحيط الايطالي بينما كانت هلين وزوجها قبل وفاته متلائمين معه تماماً كأنهما صورتان نزلتا من السقف الميثولوجي بملامحهما وتقاطيعهما اللاتينية وعيونها المعبرة وحواجبهما وشعرهما الملفت للأنظار.

ولا غرو أن يكون الرسامون الايطاليون بهذه المهارة. فلم ينقصهم الوحي ولا الوجوه ليرسموها ولا المشاهد الطبيعية بأشجار الزيتون على منحدراتها أو بساتين الحمضيات أو المدن التي تذكرك بالمؤامرات والعواطف والأهواء.

في تلك اللحظة فقد تكشّف لإلفي حبها هذه الأرض التي اتتها غريبة عنها وأصبحت عروساً فيها. لن تتحمل حتى فكرة الرحيل عن هذه الأرض الربيعية ونبات الازالية والدفلى وعن اطفالها العسليي البشرة ذوي

العيون السوداء وعن الليالي الناعمة... وعن البهجة الحسية التي يشعر بها المرء وراء الجدران الدافئة وعن ازدهار أشجار الفواكه، وعن اكتشافها لغنى الايطاليين بروحهم وكياستهم في طريقة حبهم، أي المزيج بين الروحاني والشيطاني.

امعنت النظر في آنية فيها زنابق طويلة تبدو كأنها أبواق ملائكة تنتظر أن ينفخ احد فيها فتصدح. وجدت نفسها شابة صغيرة بلا حماية ستترك بعد وقت قصير بين أيدي جدة روداري الكونتيسة دي فورتوناتو.

لم تدر لماذا اعترتها رعشة خفيفة عندما رأت روداري آتياً حيث هي واقفة عند السلم الحديدي وهو ينظر اليها بعينين ساخرتين:

- لا تحبس في هذا السلم طيوراً أو عرائس مع انه كافٍ ليحتويك. لماذا هذا الانكماش يا إلفي والبؤس؟ آه... لأن كعب حذائك قصير. رأيت نفسي أطول مما أنا وعملاقاً على وشك ان التهمك.

أنزلق نظرها من وجهه الى كتفيه العريضين الناعمي الملمس والفولاذيي القوة وداخلها احساس غريب من الضعف. فسيودعها عن قريب وسيعود بسيارته الى روما ليستقل الطائرة الى صقلية. تفضل أن يبقى بجانبها ولكنها تخشى عذاب الشك والانكماش كلما لمسها كأنه سينتزع حبها الطاهر من قلبها. تريد هذا الرجل لها بكليته ولا تتحمل ان تملك ثلث قلبه فقط.

- هذا حذاء الريف. لا تستطيع الفتاة صعود التلال والسير في الطرق البرية في حذاء المدينة. وقد أركض عارية القدمين كالنساء السابينيات.

اختفت ابتسامته وحلّ محلها عبوس مخيف:

- لا مانع من أن تمثلي دور امرأة سابينية ولكن عليك الانتظار حتى عودتي لننهي اللعبة معاً. انتبهي. فالهواء هنا مسكر. اسلكي مسلك الطفلة كما يحلو لك، لكن اياك ثم اياك والاندفاع الأرعن مثل ذاك اليوم. قد يغضون النظر في انكلترا عن عروس شابة تصادق شاباً ولكن الايطاليين هنا غير متسامحين في نظرياتهم. الزواج شيء مقدس.

وجّهت اليه عينين قد تبدوان متشائمتين لو انهما لم تظهرا بمظهر المتألمتين والمرتبكتين. قالت معلقة:

- هل هو حقاً مقدس يا روداري؟ مقدس بالنسبة اليك، أي له شرع خاص بالأزواج وآخر خاص بالزوجات.

ـ الرجل هو السيد اذا كان هذا ما تعنين. ام هل انت انثوية وغير منطقية؟

ـ يمتزج كلاهما فيصبحان واحداً في عقلك كرجل، اليس كذلك؟

رسمت ابتسامة خفيفة والتفتت الى المكان حيث كان واقفاً مع هلين يتحادثان. احنت هلين وحذرتها غريزتها بانها ذهبت لتأتي بالكونتيسة. تسارعت نبضات قلبها في صدرها وشدت على أضلاعها لتستبقي قلبها كمن يستبقي عصفوراً في قفص. وتوترت اعصابها كلية عندما اخذ روداري يدها وانحنى ربما ليقبلها. تراجعت عنه قائلة:

ـ لا... جدتك قادمة.

ـ تعلم جدتي اننا متزوجان. فلِمَ هذا الحياء المفاجىء؟ اني احذرك. لن احمل تقطيب الجبين وفي حال تجاهلك ذلك ستكتشف الجدة باني صفعتك على قفاك بدل ان اعانقك.

ـ انا واثقة من ان ذلك سيسبب لها سروراً عظيماً. أليس من الواجب أن تلتزم العرائس مكانهن في غرفة النوم وغرفة الحضانة؟

غضب وضغط على يدها بشدة فآلمها، ولم تستطع أن تكتم صرخة من المؤكد انها وصلت الى اذن جدته وهي تدخل البهو ويدها على ذراع حفيدتها. وعلى الفور انتزعت إلفي يدها من يد روداري ووقفت تحدق في جدته كعصفور فارّ اصطيد في قفص مذهب. اتسعت حدقة عينيها في وجهها المكتئب وهي تواجه المرأة التي تسببت في هرب سابنيتا من زوجها.

كانت الجدة كهلة ولكن ارستوقراطية، أنيقة بشعرها الأزرق الفضي وفي طقمها الحريري باقة منشّاة. بدا وجهها منحوتاً من ماضي الأسلاف خطّته السنين وشمس ايطاليا. كانت شفتاها الرقيقتان خفيفتي الحمرة وتدلّت من اذنيها لآلىء سوداء، وفي اصابعها خواتم مرصعة بالالماس واللآلىء السوداء. رأت إلفي فيها خليطاً من ميسالينا زوجة الامبراطور كلاوديوس المبذّرة، وفي عينيها السمراوين سطوة لم تخب بعد. من الواضح ان هذه المرأة تمتعت بسلطة كبيرة في حياتها ولا تزال تمارسها كما يتبيّن من طريقة مشيتها بجانب هلين.

ـ اذن، هذه الفتاة زوجتك يا روداري؟

تكلمت بشيء من الهزء ولكن بناقض ذلك ومضة اهتمام كبير في نظرتها

كان الكونتيسة لم تتوقع أن ترى امامها امرأة بهذا الشباب وبهذه الشقرة الناعمة وبهذا الحياء. امرأة مستعدة لتجابه الروماني القوي الارادة الذي تزوجته.

ـ عندما سمعت أن حفيدي اتخذ له امرأة اجنبية، تخيّلت في الحال انها مغناج اقتحمت حياته بغوايتها كما يحدث للرجال الأثرياء والناجحين، ولا يختلف روداري عن غيره من البشر بالرغم من انه يشبه رجلاً من البرونز (وابتسمت الجدة وأضافت) لست مغناجاً يا طفلتي.

ـ آمل الا اكون كذلك (اجابت إلفي بسخط) كنت ممرضة عندما تعرفت على روداري. وكنت فتاة عاملة منذ السادسة عشرة.

لم يخلُ هذا الكلام من شيء من التحدي لأن هذه المرأة ستحتقر حتماً أي عروس لحفيدها إن لم تنحدر من الارستوقراطية الايطالية... تماما كما احتقرت سابنيتا.

ولكن السنين تلين حتى عريكة الناس الأكثر استبداداً ونظرت الكونتيسة الى إلفي بعين فيها احترام واضح وقالت:

ـ لم يخبرني شيئاً عنك. لم يعطني أية تفاصيل. فقط أرسل برقية قصيرة من روما تنبئني بزواجه بفتاة غير ايطالية ولا لقب لها، هذا كان بمثابة تهجّم عليّ طبعاً. ويعتبرني حفيدي متزمتة صارمة.

ـ وأنت، هل اعتقدت بأني ركضت وراء الثروة؟

كما تجرأت على مجابهة روداري هكذا تجرأت على مجابهة هذه المرأة التي لا تكاد تقوى على الصمود واقفة على ساقيها المشتنين حتى أن هلين ساعدتها بالجلوس على كرسي مقصب اشبه بعرش وعلى مسند تحت قدميها المتعلتين حذاء من الأطلس بربطه ابزيم من الفضة. وبدت وهي جالسة على هذا الكرسي نحيلة كتمثال نحت من عاج قديم ثمين، وكانت يداها المرتكزتين على ذراعي الكرسي بحجم قدميها الصغيرتين كما كانتا مثقلتين بخواتم مرصعة بأحجار كبيرة.

ـ انا دائماً من الرأي الراسخ بأن الايطالي الذي يتزوج في منتصف الثلاثينات يكون اما متيماً بالمرأة التي تزوجها أو متبرماً بأصدقائه. وبما انك لست ذات جمال فتّان فمسألة الافتتان تصبح خارجة عن الموضوع. روداري من آل فورتوناتو ولما لم يجد التبرّم له سبيلاً ابداً الى عائلتنا فهذا

ايضاً يخرج عن الموضوع.

وقامت الكونتيسة بحركة بيديها كأن هذا اللقاء مع عروس روداري جرّدها من سلاحها ومن ملكة الكلام. لكنها تابعت تقول:

ـ ربما تزوجك عن ولع بك، هيه؟ ربما شعر الأسد الروماني بحاجة الى يد لطيفة على جلده الأسمر. انك حقاً شجاعة وانكليزية صرفة يا طفلتي لتجاسري وتتحدي كبرياء فورتوناتو.

اجابت إلفي مبتسمة:

ـ اظن انه كذلك.

ولكنها أحست بالأسد الروماني يتململ بجانبها كأنه أراد أن يقول فوراً بأن شيئاً من هذا لم يكن السبب المباشر في زواجه بممرضة انكليزية كلها حياء. انه اراد فقط الانتقام من كاميلا ومن هذه السيدة العجوز المستبدة التي دفعت بأمه الى اليأس وعن غير قصد منها الى الموت. ان روداري فرد من آل فورتوناتو مفترس بحبه، غيور على شرف عائلته وغير مستعد مطلقاً للعفو عن الاهانة.

التفتت الكونتيسة الى هلين بعجالة وبعين لم تخف حناناً عميقاً وقالت:

ـ يجب أن نتناول القهوة يا هلين. هلا طلبت احضارها؟

ـ حالاً يا جدتي ـ وقالت لإلفي ـ تناولي كرسياً يا عزيزتي. وأنت ايضاً يا روداري بدل أن تقف حيث انت مسيطراً علينا بحجمك.

ـ لا يجب أن اتأخر، اذ عليّ أن اقابل لانشياني في مطار روما ثم أطير الى صقلية.

ـ لانشياني؟ تباً له من رجل (بدت هلين متبرمة) انه بسالفيه الأسودين وبعينيه النفاذتين اللتين تعرّيان كل امرأة تنظران اليها يذكرني برجال الابتزاز. لماذا تشاركه؟ ليس من النوع الذي يليق بك.

ـ وأنت لماذا تعملين بكل قواك في الأمور الاجتماعية؟ ربما تحمل في قلبنا شفقة بالغير اكثر مما نتصور.

ـ لا اتصور انه يحتاج الى مساعدة (قالت هلين غير مصدقة) اما الناس في المركز الاجتماعي فيحتاجون الى مساعدة ومؤاساة ويستحقون المشقة والاهتمام. ولكن لانشياني اراه شيطاناً متعجرفاً يكرّس نفسه للحصول على المال ولغواية النساء. اسائل نفسي عن عدد الفتيات الحالمات ومحبات

الأفلام اللواتي وقعن في المشاكل بعد مقابلة بينهن وبين نابوليون السينما المتعالي!

ـ يا له من خطاب طويل (قال روداري ضاحكاً) يحسن بك ان تعطيني القهوة لآخذ منها نصيبي في ما تبقى لي من الوقت.

ـ انه نابوليون، وسأحضر القهوة بنفسي. هل يسمح لك وقتك بتناول قطعة من الحلوى؟

ـ بالكرز والقشدة ؟

كان عابساً وهو جالس قرب احد الأعمدة واضعاً يده في جيب بنطلونه وغارقاً في التفكير وكأن ذكر الكرز وسحر هذا البيت واجتماعه بأفراد العائلة انسته تفكيره وأعادت الى ذهنه ذكريات طيش الشباب وأحلامه.

وعلى ذكر الكرز تذكرت إلفي يوم اشتريا كرزاً في روما وأكلاه بين خرائب المدينة التاريخية.

لا تذكره هذه الفيلا السابينية بالعناصر المأسوية القائمة على الجزيرة. وهنا لا اشباح ولا اسرار تهمه شخصياً، وفي كل الأحوال لن يستقر في الفيلا وكل تكتكة تصدر عن ساعة الحائط الفينيسية تقرب لحظة وداعه.

استعدت إلفي لساعة الوداع... صحيح انها تظهر مخالبها لحبه من حين لآخر الا انها تتألم لابتعاده عنها. نظرت اليه وهو جالس بجانب العامود ورد عليها بنظرة خلت من كل اشارة حنان. هل سيبقى كل ذلك الوقت في صقلية أم سيدفعه تشوقه الى كاميلا للذهاب اليها مساء حفلة الرقص حيث سيشيح القناع عن وجهها الجميل؟

اتت هلين بصينية القهوة والحلوى وبدا لإلفي ان هذه اللحظة الأخيرة قبل توديعه هي لحظة ذات جناحين، ربما جناحا القدر الذي يخطط لفصلهما عن بعض.

رفع نظره الى ساعة الحائط وهبط قلبها مع هذه النظرة. انحنى ليقبل جدته على خدها. وضعت جدته يدها على كتفه وتمتمت بضع كلمات بالايطالية لم تستطع إلفي سماعها غير انها احست بانها تتعلق بها. تيبس جسمها عندما انتصب روداري وتطلع اليها بعينين فيهما انفعال لا تستطيع وصفه... ثم أسدل اجفانه ولم تعد ترى لهيب نظراته.

ـ عليّ أن اذهب يا هلين. وجدت الكعك بالكرز لذيذاً ولن أنسى

بنعومة. اخرجي معي يا إلفي لتودعيني.

قادها كطفلة ونزلا السلم الى حيث السيارة السوداء. ورغم حرارة الشمس شعرت إلفي بقشعريرة برد وهي تقدم وجنتها لقبلة روداري. تنقاد اليه في كل شيء كالطفل ورفعت وجهها اليه عندما لمس ذقنها. . . هل هذا تأثير كلام جدته له؟ هل انقلبت الجدة ووافقت على عروسه وهمست في اذنه بانها ستقيم الحفلات تكريماً لها بعد عودته من صقلية لتعرفها على اصدقاء العائلة؟ واذا صدف وحدث ذلك فسيصعب عليها الانفلات من رباط هذا الزواج الذي عقده بدون اي تفكير. في ايطاليا ما زال يعتبر الزواج سراً مقدساً. وهذا ما قاله هو بالذات.

تلمست اصابعه الوشاح حول رقبتها وقال:

ـ يبدو ان الجدة وقعت تحت تأثير عينيك الواسعتين وصارت ضحية لها. ربما ذلك بتأثير السنين التي ليّنت عريكتها، ولذا يمكنني أن اتركك هنا في كورفينا بدون أن يعرف نومي القلق في صقلية حيث تنام على الشرفات بسبب الحرارة المرتفعة في الداخل.

كانت تشعر بلمساته كسهام صغيرة تنفذ الى قلبها:

ـ لا اريدك أن تقلق بسببي يا روداري لأني اعرف تماماً انك ستنشغل بأشياء اكثر اهمية مني.

ـ تتكلمين كما تتكلم الزوجة المطيعة. الجدة محقة في قولها بأن جمالك ليس فاتناً. . .

ـ ولن يكون ابداً (ازداد وخز تلك السهام) يجب أن تسامحني اذا سهوت عن تذكيرك بزهرة جنوبية.

تخلصت منه وصعدت الدرجات راكضة وتابعها بنظره وهي واقفة في القمة في ثوبها الأبيض. وبدا لها انه متردد كان هذه اللحظة مؤاتية ليقرّ فيها حبه للمرأة التي تراها إلفي في مخيلتها بكل وضوح. قد لا تلتقيان مطلقاً غير ان إلفي تعرف منافستها.

ـ الوداع.

لوح بيده ودخل السيارة وعندما ادار محركها رأت إلفي عصفوراً يطير من شجرة غار قريبة. التفت نحوها لحظة. ظلت في مكانها الى أن خيّم

سكون على المكان كان يقطعه صوت الزيز بين الأشجار وأحست بقلبها ينبض الماً ليس بسبب شكوكها في الجزيرة بل لعلمها بحبه لكاميلا. رحل ولم تتمن له رحلة سعيدة، فقد خنقتها العبارة في آخر لحظة وخافت ان تكشف عن ضعفها فتبكي.

ظلّت واقفة مدة طويلة على رأس الدرج الى أن ظهرت تباشير الغروب في السماء وأخذ النسيم يحرك ورق الأشجار. لماذا لم تصرخ له وتقول:

ـ لا تذهب يا روداري. حدسي يقول لي ان شيئاً رهيباً سيقع. . .

لماذا امتنعت عن تحذيره؟ ربما لأنه لن يستمع اليها ولن ينتبه الى عمق التوسل في عينيها. ثم لماذا هذا الادعاء بأن لها سطوة عليه؟ لو انه يحبها لتبين عبارة الخوف الغريب في عينيها والذي لا تستطيع تفسيره.

سمعت وقع اقدام ورأت نفسها مرغمة على الابتسام لهلين عندما انضمت هذه الأخيرة اليها وحيّتها ذاكرة أشياء عابرة لعلمها بأن إلفي قد تكون حزينة:

ـ كان اليوم جميلاً. هل ترغبين يا عزيزتي بجولة في الحدائق؟ سأريك شجرة الكشمير التي يوجد لها توأم في الجزيرة وسترين التشابه في عدة أوجه بين الحديقتين.

طبعاً لم تقل إلفي ان رؤية هذه الأشياء المألوفة ستسبب لها سروراً والماً أقوى مما تستطيع الكلمات التعبير عنه ولذا ظلّت تبتسم وأومأت برأسها موافقة.

اقتربتا من الحاجز الحديدي للحديقة ثم دخلتا بوابة صغيرة ومشتا بين اسيجة من الآس والغار ودخلتا حديقة ماغنوليا تتوسطها عين جميلة بأرضية خضراء وفي بركة العين سمك من أشكال مختلفة وعلى سطح مائها تعوم أوراق الزنبق. ركعت إلفي على حافة البركة وأخذت تلعب بمائها الرطب وبدا لها ان القنافذ الحجرية المنحوتة دبّت فيها الحياة وشاركتها في لعبها وكانت الطيور تلعب بين اشجار السرو القديمة. وذكرتها الزنابق العائمة بزنابق الماء للرسام مانيه وبأمسيات الجزيرة عندما كان روداري يمسك بيدها وهما يتنزهان معاً في حدائقها. . . فهل ستكون كورفينا نهاية المطاف وبداية الكابوس؟ ولما رفعت عينيها هالها أن ترى هلين تنظر اليها بقلق. ربتت هلين على شعرها الأشقر شفقة بالمسكينة التي بدت لها في ثوبها الأبيض

نحيلة كالطيف وسألتها عما بها.
- اظن اني حمقاء ومكتئبة يا هلين، ولكني اقدر عمق حزنك عندما فقدت فلافيو. كثيراً ما يتبادر الى ذهني هذا السؤال... هل انباك حدسك بقدوم الكارثة؟ هل شعرت باقتراب النذير؟
جلست هلين بالقرب من إلفي وأخذت يدها وقالت مجيبة على سؤالها:
- كان الخوف يلازمني وكنت اجلس وأراقب سباق السيارات وأنا ارتجف هلعاً. ولم اصدق ان الحادث وقع له، بل لم استوعب حقيقته، وعشت هذه المأساة مئة مرة وفي كل مرة ارى فيها لهب النيران ينتشر على حلبة السباق واسمع هتاف المشاهدين من حولي وصراخ النزاع. مرّت الأسابيع والأشهر بعد موت فلافيو وكأني في غشية. كنت اتكلم وأبدو حيّة ولكني لم اكن اشعر بشيء، ومضى عليّ زمن طويل وأنا على هذه الحال.
- مسكينة هلين (نسيت إلفي وجلها وقبلتها على خدها) ما كان يجب أن اسألك عن المأساة.
- بل على العكس. انا مسرورة اني استطعت التكلم عنها في نهاية الأمر. أنت تحبين روداري وتخافين عليه أثناء بعده عنك. وهذا طبيعي. وقال لي على الهاتف انك كنت منزعجة قليلاً فعادك الدكتور روسي. هل اعجبك هذا الطبيب؟ انا مدينة له لنجاحه في الابقاء على صوابي بعد فقدان فلافيو. كان في منتهى اللطف وقد أخرجني من الحالة التي كنت فيها، وهو الذي ادخلني في أعمال الشؤون الاجتماعية حيث أصدفه بين الحين والآخر. انه أحد القديسين الذين اعرفهم!
ابتسمت إلفي اذ تذكرت اعتقادها بأن الدكتور روسي يحب الأرملة الشابة حباً جماً وسيرفع هذا الحب صوته يوماً ما، وسيفرض مطالبه الحتمية وحينئذ ستجد هلين التي تألمت في شبابها ملاذاً في الرجل الذي يختلف تماماً في مزاجه عن زوجها الفقيد. فهو اكبر منه سناً وأكثر حكمة وكله اخلاص في تكريس جهوده للحفاظ على حياة الانسان. يكفي المرأة ان تعشق الشيطان مرّة واحدة فقط.
- اعتقد يا عزيزتي بأن لك قلباً كبيراً (قالت هلين وهي تلعب بخاتم الزواج الذي في اصبع إلفي) ومن حسن الحظ أن روداري وجدك في الوقت المناسب فقد شاعت بصدده اشاعات عن امرأة متزوجة لرجل آخر...

ويؤلمني أن يتورط أخي في شيء من هذا النوع. انه من عائلة فورتوناتو واحساساتنا عميقة. وتنفسنا الصعداء عندما تعرفنا عليك وتأكدنا من طيبة قلبك.
- انا، طيبة؟ من اصعب الأمور أن تكوني طيبة عندما يتلهف زوجك شوقاً الى جمال عرفه وفقده. طبعاً تعرفين يا هلين ان اخاك تزوجني كرد فعل لخسارته كاميلا؟
- هذا يسبب لي سروراً اذ سيعينه على نسيانها. هل الجمال كل شيء؟ أين القلب والروح والحنان بعد زوال الجمال؟ يزول الجمال ويخلّف قشرته وراءه. وهؤلاء النسوة لا يحببن الا أنفسهن. لم يتعلمن كيف يقدمن حباً حقيقياً للرجل.
- ولكن هل يعرف الرجل ذلك؟
جال نظر إلفي في أرجاء الحديقة المعتمة حيث بدت الأشجار كظلال سوداء وبدا كأن قنافذ الماء تلمع في الماء. وصلت الى سمعهن اجراس المساء عن التلال برنينها المؤثر في هدوء الغسق.
قد يكون روداري على متن طائرة نفاثة جالساً بجانب الكوّة يتباحث في اعماله مع الاشخاص، او غارقاً في تأملاته يناجي النجوم من الكوة اياها.
وفجأة أحست إلفي بالبرد يغزو جسمها وقفزت واقفة وقالت:
- لندخل... اريد أن... أن ارى النور. اريد ان اسمع الموسيقى. هل لديكم فونوغراف، نستطيع استعماله؟
- بكل تأكيد يا عزيزتي.
كان البيت مضاء عندما دخلنا البيت وكانت الخادمة تغلق النوافذ وتسدل الستائر فتفصل الخارج المعتم عن الداخل المنير. ولكن هذا العمل جعل إلفي تفكر في ان هذا الاغلاق حجب النجوم ايضاً، وروداري موجود هناك بين النجوم ينظر اليها بعين قلقة.
رأت هلين لمعاناً قوياً في عيني إلفي الرماديتين وقالت لها:
- دعيني ادلك على الغرفة حيث تنامين.
أفاقت إلفي بصورة مفاجئة في عمق الليل الهادىء وبقيت حيث هي تحدق في الظلام ولا تسمع سوى تكتكة احدى ساعات البيت. وهذه التكتكة لم تزعجها بل جلست في فراشها وأصغت بكل حواسها الى

أصوات الليل. أخذت هذه الأصوات تتضح شيئاً فشيئاً وارتفع تسارع نبض قلبها عندما سمعت أصوات وقع أقدام على شرفة غرفتها. جمدت في مكانها وبعد جهد جهيد تمكنت من مد يدها الى المصباح بجانب سريرها. ضغطت على الزر فكشف النور عن أثاث ايطالي وورق الجدران وعن الستائر المسدلة على باب الشرفة الذي لم يكن مغلقاً تماماً بقصد تهوئة الغرفة.

تيبست عضلاتها وصرخت عندما رأت بدأ تحرك الستائر المقصبة ورجلاً نحيلاً يقف هناك، وبسرعة البرق ذكّرها هذا المشهد بليلة مماثلة عندما تسلل رجل من الشرفة الى غرفتها وفي مكان غير هذا المكان.

بقيت عيناها مفتوحتين لا ترّفان وارتبط لسانها أمام منظر الدخيل الطويل القامة. كان شعره مشعثاً وعيناه تلمعان كعيني القط.

- روداري...

- عرفت غرفتك... جميع الأبواب الخارجية مقفلة ومدعمة بمزاليج... حسب أوامر الجدة حرصاً على المجوهرات.

لم تصدق ما رأت بعدما اعتقدت بأنه كان بعيداً جداً. أهي في حلم؟ أخذ يقترب رويداً رويداً من سريرها كان كل عرق فيها وعصب تجاوبت على الفور مع قربه منها.

- روداري... لقد تسلقت وتعرّضت للسقوط.

- شحب وجهك... لقد اخفتك.

- ظننتك في صقلية.

- لم اذهب. كانت حقيبتي معدة وطلب املكار سيارة تاكسي وكنت حاملاً حقيبتي الشخصية في يدي... وفجأة شعرت باني لا استطيع ان اسافر. بقيت أرى عينيك تحدقان فيّ... تحذراني بعدم الذهاب، وأراد القدر ألاّ اذهب، فلو ذهبت...

ظلّ واقفاً بجانب السرير يحدق النظر فيها. رأت اثر صدمة واضحة في عينيه وعلامات الوهن والضعف فيه كما لم تعرفه من قبل.

- رأيت ان آتي اليك قبل انبلاج الفجر... قبل أن تسمعي الخبر في الراديو عن تحطم الطائرة. وتعتقدين باني كنت بين ركابها. هل فهمت الآن؟

جلس على حافة السرير وعاد دفء جسمه الأسمر قريباً منها كما لاحظ هو الآخر عودة الدفء الى وجنتيها عندما تفرّست فيها عيناه السمراوان اللتان ستموت من اجلهما لو لزم الأمر.

- نعم، تحطمت الطائرة وهي تهبط على ارض المطار في صقلية حيث حضر من له علاقة بأفلامنا لاستقبالي انا ولانشياني وبعد أن اتصلوا تلفونياً باستديوهاتنا في روما وأطلعتهم احدى السكرتيرات على مكالمتي مع نيكولا واني عدلت عن السفر الى صقلية عادوا فاتصلوا بي.

صمت روداري بعض الوقت مد في أثنائه يده وتلمس احجار الياقوت على صدرها وتابع حديثه قائلاً:

- لم يبق احد من الركاب على قيد الحياة ونيكولا المسكين احدهم. فقد اتت النيران على الطائرة ومن فيها. صحيح انه لم يكن ملاكاً ولكن كانت له مواهبه. وبدونه ستشعر صناعة الأفلام بالنقص؟

تذكرت إلفي حيوية الرجل وحركاته الخفيفة في الصالون الصغير حيث شبهته بخفة الفهد.

- لانشياز؟! للهول... ولكن كادت تكون المصيبة أعظم يا روداري. اعظم بكثير لو كنت انت على متن الطائرة يا حبيبي...

اختنقت عبراتها وانعقد لسانها. لم تستطع الا النظر اليه لتمتص حقيقته بكاملها بكل جزء فيه. حاسة سادسة كانت قد حذرتها من أن شيئاً مريباً يكتنف هذه الرحلة. رأته بعينيها وشكرت السموات على أن روداري رآها نو الآخر وها هو الآن بجانبها، يلمسها لمس اليد ويحتاج اليها متناسياً كل ما عداها من النساء.

- رأيت عينيك تتوسلان اليّ كي أبقى. ولم يغب وجهك عن ناظريّ طوال طريق عودتي الى روما وكانت عيناك تحدقان فيّ. رأى نيكولا لانشياني قوة الاستبصار في عينيك، ويدهشني ان يرى نيكولا ذلك من بين جميع الناس. وقد ضحك عندما اتصلت به لأخبره بالغاء رحلتي، ولا تزال ضحكته ترن في اذني... وقال لي: هل تعجز عن الابتعاد ولو قليلاً عن عروسك الانكليزية؟ لكي لا اعتبرك مجنوناً رومانطيقياً. كان ذلك يحدث لي كلما ألتقي إلبس الساحرة عن عملي.

تنهد روداري وطوق خصرها بذراعه وقال:

- ان انفساخ زواجها شيء يؤسف له وكنت آمل أن اراه مستقراً مرة اخرى...

لم تقع إلفي مطلقاً في صمت متواصل كهذا. الا انها كانت تحس بامتزاج ضربات قلبها بضربات قلب روداري. وبحركة عصبية خلع سترته وضمها اليه كأنه شعر بحاجة ماسة الى الحنان وشعرت هي بتعطشها لحيويته.

- هل تتذكرين فتاة الجزيرة التي كادت تقذف بنفسها في الماء؟

قال روداري وهو يخترق عينيها بنظره:

- نادتني روبيرتو عندما امسكت بها، ويخيل لي الآن انها اما ارادت الاستنجاد به أو انها كانت تهذي من الخوف وحرارة الشمس فحسبتني لانشياني. وفي اعتقادي بانه وقع في حبها بعد ان هجرته اليس، وعند عودتي الى روما ذكرت له قضية الفتاة معتمداً في رأيي على الشبه الواقع بينه وبين الطفل وعلى الاسم روبيرتو مما جعلني اعتقد بأن لانشياني هو عشيق الفتاة. قال لي ان حياتها مؤمنة وأملت ان عزة نفسه الايطالية سترغمه على الاقرار بأبوة الطفل. شيء مؤسف حقاً. لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

الآن وقد تبين لإلفي فداحة خطأها باتهام زوجها وضعت رأسها على قلبه وضغطت بقوة كأنها تريد أن تعبّر عن ندمها وعن حبها وعن عمق رغبتها في سماع المزيد من الاعترافات. تاقت لأن تعرف لماذا اتى اليها خلسة في ظلام الليل بينما كان في امكانه أن يتصل بها هاتفياً في الصباح الباكر ليطمئنها على سلامته وعلى انه ليس في عداد ضحايا الحادث. لماذا يحتضنها هكذا ولا يفصل بين قلبيها غير قميصها الخفيف وقميصه؟ لماذا اظهر لها حباً جامحاً بينما هو يحب كاميلا؟

- كم انا مسرورة بسلامتك.

أخذت تهمس كلمات ناعمة في محاولة مقامرة مع طبيعته الخشنة المتعالية والقوية، وذلك أملاً منها ممزوجاً باليأس بانه سيعنف معها ليبرهن انه يريد منها اكثر من مجرد كلمات مجاملة.

- مسرورة بسلامتي؟ (شدها اليه بقوة) احطم اعلى رقم في السرعة لأصل الى هنا. واتسلق حبال الهواء مخاطراً بحياتي لأكون بجانبك وتقولين

فقط بانك مسرورة؟ ظننت انك ستستقبلينني بشيء من الحنان.

أبعدت وجهها عنه ونظرت في عينيه تتعمق في لهيبهما الغامض:

- بشيء منه؟ لماذا يجب أن احطم قلبي من اجلك وأنت تحطم قلبك من اجل تلك المرأة التي ارتبطت بحبها في البندقية؟ والتي اخذتها الى الجزيرة؟ والتي امضت ليلتها في شقتك في روما...؟ لقد سمعتك تتكلم معها بالتلفون وترتب موعداً في حفلة الرقص المقنعة.

لم تعد قادرة على متابعة الكلام وضحك ضحكة فيها حشرجة، بينما كانت عيناه تتنقلان في كل ذرة من جسمها.

- تريدين ان تعرفي كل شيء عن كاميلا اذن؟ كانت جميلة وساحرة كأجمل رسم على الجدران أو كتمثال مصقول من البرونز الأصفر. ولم أعرف في حياتي كلها امرأة مثلها. كان لها جمال للتمتع بالنظر اليه فقط لا بلمسه، ولها شفتان للاثارة وليس للتقبيل، ولها جسم في منتهى الكمال لا يليق به اللباس الأنيق ولكني لم اخلق كي اجثو امامها عند قاعدة تمثالها. نعم، اتت في احدى الليالي الى شقتي وكان خطيبها قد عاد من اميركا وكان يلح على الاسراع بالزواج منها. اما هي فكانت تصر على الزواج مني مضحية بثروته من اجلي، ولكني كنت قد تعبت من كبريائها ومللت من خوفها أن امس شعرها لئلا تفسد تسريحته أو القبلة خشية أن الطخ تلوينة وجهها وضجرت من تلميحاتها ان المرأة زهرة يجب الاعتناء بها على هذا الأساس.

وتابع يقول بحماس:

- نعم. لم تكن زهرة كاميليا فحسب بل كانت تعيش وتتحرك كالكاميليا وكأنها نبتة في مستنبت زجاجي موجودة فيه للحفاظ عليها ليس الا.

نظر الواحد منهما الى الآخر وما لبث ان دفن رأسه بين كتفها وعنقها.

- في أول الأمر يا عزيزتي كنت أرى فيك رمزاً غاضباً من النساء الباردات المترفعات والعاقرات في العطاء. ثم بدأت احبك واشتهيك بكل حرارة من ناري اللاتينية ولكني لم اكن واثقاً منك، فقد كنت تظهرين احياناً خوفاً من تلهفاتي اليك.

- سمه حباً. ارجوك. سم هذا التلهف حباً.

- أولم اعبّر عن ذلك بجسمي؟ وفي كل مرة؟ الا تعرفين يا إلفي ان الأفعال أقوى من الأقوال؟ يا مجنونتي المحبوبة، كثيراً ما اشتهيت ان اكلك

كدراقة!

- ووداري.

- نعم؟ هذا هو اسمي، وانت لي يا معبودتي الآن، هذه الليلة، غداً، وكل يوم يأتي بعده بلياليه احضنك فيه ولا أفلتك. تصوّري الصدمة التي ستصعق الخادمة في الصباح عندما ترى رجلاً ممدداً بجانبك. قولي لي، ما هي قصة الحفلة الراقصة المقنعة؟

- سمعتك تتصل هاتفياً... وتتكلم بحنين عن البندقية فافترضت انك كنت تتكلم مع كاميلا. فقد قلت انك ستلتقي بها في الحفلة الراقصة الخيرية وستتعرف عليها مهما حذقت في التخفي وراء قناعها!

تراقصت عيناه ووضع طرف اصبعه بين عينيها القلقتين وقال:

- فهمت. ألم تسمعي بالمسجلات يا طفلتي الحمقاء؟ يستعملها الكتاب لتسجيل افكارهم. دائماً اسجل ملاحظ لتصميم كتبي وهذا يعطيني نموذجاً عن سير الحوار بين الممثلين.

- اوه...؟

نزل عليها الفهم كحبة لؤلؤ.

- فهمت الآن، اي انك تملي افكارك على الآلة.

- نعم، وسامحي عليك ارق إذا فاجأتني بمهاترات عن كاميلا. هل سأقبل تمثالاً بارداً عندما استطيع ان اقبل دفئاً حياً كله شباب وعطف وقلب ينبض؟

افترت شفتاه عن ابتسامة كلها حنان.

- تعالي يا سابينتي. دعيني اعانقك على طريق النعيم

ابتسمت بهناء... غداً ستدخل الكآبة الى قلبيهما حزناً على نيكولا وعلى الفتاة التي احبت له طفلاً. اما هذه الليلة فهي احتكار للرومانى الذي خرج من الظلام وأتى ليؤاسيها.

دفنت اصابعها في شعره الأسود وهمس قائلاً وهو يطفىء النور:

- يا سابينتي...